جامعة الأزهر

كلية البنات الإسلامية بأسيوط

أسس صناعة الحضارة في الإسلام

إعداد

حسن إبراهيم يحيى محمد

دكتوراة بقسم اللغويات، كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر فرع أسيوط، الأمين العام للجنة العليا

لشئون الدعوة بمجمع البحوث الإسلامية، مصر.

المؤتمر العلمي الدولي الثاني

الحضارة الإنسانية في التراث العربي والإسلامي

أصالة الأثر.. عالمية التأثير

(في الفترة من ٨ إلى ٩ فبراير ٢٠٢٥م)

الجزء الأول

١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٥م

أسس صناعة الحضارة في الإسلام

حسن إبراهيم يحيى محمد

دكتوراة بقسم اللغويات، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر فرع أسيوط، الأمين العام للجنة العليا لشئون الدعوة بمجمع البحوث الإسلامية، مصر.

البريد الالكتروني: drhassan871@gmail.com

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إماطة اللثام عن أسس صناعة الحضارة في الإسلام، وتناولت الأساس العقدي والأساس التشريعي والأساس الأخلاقي، وركزت الدراسة على علاقة الحضارة بالعقيدة، وأكَّدت أن الحضارة التي لا ترتكز على عقيدة سليمة من العيوب خالية من الآفات حضارة هشة ضعيفة؛ وتضمنت الدراسة مفهوم الشريعة، وعلاقتها بالحضارة مؤكِّدة أنَّ الشريعة أساس في بناء الحضارة، وبغير الشريعة تكون المنجزات الحضاريَّة أمراضًا اجتماعيَّة تحتاج لعلاج، وليست حضارة، وأكدت الدراسة: أنَّ الحضارة – أي حضارة– تنتهي عندما تفقد في شعورها معنى الإنسان، وأشارت الدراسة أنَّ هذا الكم من التفسيرات، والتحليلات والنظريَّات التي أنتجها أسلافنا لم يكن عبثًا، وإنما كان خطوة أولى من خطوات صناعة الحضارة، وتحقيق العمران؛ إذ على أساسه وجد المنهج التربوي والأخلاقي الذي يحمي الإنسان من شرور نفسه، ويربطه بربه وخالقه في تحديد غاياته، واتخاذ السبل الشرعيَّة التي تحقق هذه الغايات، ومن ثَمَّ ظهرت كتب الأخلاق، والفقه، واللغة، والفلسفة والتصوف والسلوك؛ لتتكامل في وضع منهج رباني المصدر، يضمن استقرار الحضارة وانتشار خيرها، على أساس عقدي، وتشريعي، وأخلاقي. وانتهت الدراسة إلى أنَّ الرؤية الإسلاميَّة التي أنتجها التراث الإسلامي تتيح لنا صناعة حضارة آمنة تحترم آدميَّة الإنسان، ولا تُغير على خصائصه.

منهج البحث: اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي، وخطته :وقد جاء هذا البحث في مقدمة وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهارس فنية متنوعة.

كلمات مفتاحيَّة: الحضارة، العقيدة، الضروريات، الكليات، المسؤولية الأخلاقيَّة، القيم الروحيَّة، الماديَّة، المشروع الحضاري، الأمة.

Foundations of Civilization Building in Islam

Hassan Ibrahim Yahya Mohamed

PhD in Linguistics, Department of Arabic Language, Al-Azhar University, Assiut Branch, General Secretary of the Supreme Committee for Da'wah Affairs at the Islamic Research Academy, Egypt.

Email: drhassan871@gmail.com

Abstract :

This study aims to uncover the foundations of civilization building in Islam, addressing the doctrinal, legislative, and ethical foundations. The study focuses on the relationship between civilization and faith, emphasizing that a civilization that is not based on a sound and flawless belief system is fragile and weak. The study includes the concept of Sharia and its relationship to civilization, affirming that Sharia is fundamental to building civilization. Without Sharia, civilizational achievements become social ailments that require treatment, rather than true civilization. The study asserts that any civilization ends when it loses the meaning of humanity. It also points out that the extensive interpretations, analyses, and theories produced by our ancestors were not in vain, but rather the first steps in the process of civilization building and urban development. Based on this, the educational and ethical methods were established to protect humans from the evils of their own selves and to connect them to their Creator in determining their goals, while taking the legitimate means to achieve those goals. Subsequently, books on ethics, jurisprudence, language, philosophy, mysticism, and behavior emerged, integrating into a divine-based method that ensures the stability and spread of the goodness of civilization on a doctrinal, legislative, and ethical foundation. The study concludes that the Islamic vision produced by Islamic heritage allows us to build a secure civilization that respects human dignity and does not alter its essential characteristics.

Research Method: This research follows the analytical method, and its structure includes an introduction, four main sections, a conclusion, and various technical indices.

Keywords: Civilization, Doctrine, Necessities, Faculties, Moral Responsibility, Spiritual Values, Materialism, Civilizational Project, Nation

المقدمة

حديث الحضارة الإسلاميَّة هو حديث أكثر الكتاب والباحثين في هذا العصر، سواء منهم المسلمون وغيرهم، فأكثر المؤلَّفات التي تظهر ومعظم المجلات الفكريَّة التي تنشر تحفل بأحاديث مسهبة ومكررة عن الحضارة الإسلاميَّة، ومدى أهميتها في عصر ازدهارها الغابر، وهذا يدعونا إلى التساؤل عن السر الذي جعل تلك الحضارة الباسقة تدبر بعد إقبال، وتتحجر بعد طول نمو وازدهار.

وللإجابة عن هذا التساؤل يجب علينا مراجعة الأسس التي بُنيت عليها الحضارة الإسلاميَّة، والبحث في الجذور والأصول التي كانت سببًا في ازدهار الحضارة الإسلاميَّة، وذلك لتكوين وصناعة حضارة إسلاميَّة ممثالة بروح معاصرة، فنظرة سريعة على العرب قبل الإسلام، وما كان لديهم من عادات وتقاليد، لا تمت للحضارة بصلة، وحالهم بعد الإسلام وما وصلوا إليه من رقي معرفي، أثمر حضارة كانوا هم أساتذتها، وروَّادها، ومن ثَمَّ نبحث في المعطيات الإسلاميَّة التي انبثقت منها ينابيع الحضارة؛ لنصل إلى نتيجة مفادها أنَّ الحضارة المنبتة الصلة عن الإسلام؛ عقيدة وشريعة وأخلاقًا، لا تُعَدُّ حضارة، وأن سبب اندثار الحضارة الإسلاميَّة تخلي أبنائها عن الأسس والقيم التي جاء بها الإسلام.

وهذه مقدمة لا بد منها ونحن نتحدث عن أسس بناء الحضارة؛ لأنَّه دون الرجوع إلى حال القوم الذين نشأت فيهم تلك الحضارة، والوقوف على حالهم قبل الإسلام وحالهم بعد الإسلام لن نستطيع أن نحدد الأصول أو الأسس التي كانت علامة فارقة في النقلة الحضاريَّة التي شهدها العرب، ومن ثَمَّ نفقد الأدوات الرئيسة في إعادة إنتاج حضارة مماثلة.

وبالنظر إلى حال العرب قبل الإسلام فلن نطيل الحديث عنه، وإنما نوجز القول بأنَّه كان من البداوة والغلظة ما يستحيل معه إنتاج حضارة، ويكفي أن نشير إلى أنهم حولوا

وهاد الصحراء إلى قبور يدفنون فيها أنفسهم بأيدهم من أجل ناقة أو ضرع ناقة، ويكفي أن قائلهم كان يقول: [من الوافر]

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا (١)

وما كان من عاداتهم الجاهليَّة التي كان منها وأد البنات، مع فساد المعتقد، وما ترتب على ذلك من انحدار أخلاقي، وما تبعه من بداوة وتصحر حتى في المشاعر، وحسبنا في وصف حالهم «أنهم لم يُرَ لهم دين ولا حزم ولا قوة، همتهم ضعيفة بدليل سكنهم في بوادي قفراء، ورضائهم بالعيش البسيط، والقوت الشحيح، يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضًا من الحاجة، أفضل طعامهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع؛ لثقلها، وسوء طعمها، وخوف دائها، وإن قَرَى أحدهم ضيفًا عدّها مكرمة، وإن أطعم أكلة عدّها غنيمة، تنطق بذلك أشعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم»(٢).

وهذه حالة لا تنتج حضارة، ولا تقوم عليها صناعة، ولا ترتقي بها أُمَّة؛ ولذلك امتن الله عليهم في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الجمعة: ٢].

وهذا يدعونا لإعادة السؤال مرة ثانية: قوم هذه حالهم، كيف أنتجوا حضارة لم تعرف لها الدنيا مثيل؟ والإجابة في «الدين» الذي جاء به سيدنا رسول الله ﷺ، وتضمن مفاتيح الحضارة، وأسس بنائها، ومفاتيح الحضارة كما وضحتها الآية السابقة هي: القراءة، والتزكية، والعلم ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، وأسس صناعة الحضارة: العقيدة والشريعة والأخلاق؛ وذلك لأنه لم يطرأ على القوم ما يُغَيِّر حالهم إلا الدعوة التي جاء بها الإسلام.

---

(١) ديوان عمرو بن كلثوم، جمعه، وحققه: إميل بديع يعقوب، الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م، ص٧٨.

(٢) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي (المتوفى: ١٤٠٨هـ) الناشر: دار الساقي، الطبعة: الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م ،١/٣٦٣.

أهميّة الموضوع:

تكمن أهميَّة هذا الموضوع في أنَّه يمثِّل خارطة طريق لإعادة إنتاج الحضارة الإسلاميَّة من جديد، ويكشف القيم الحضاريَّة التي اشتمل عليها التراث الإسلامي، ويرشد الحضارة لخدمة الإنسان، ويحرِّر الإنسانيَّة من الأنانيَّة الماديَّة، وفق الرؤية الإسلاميَّة.

سبب الكتابة في هذا الموضوع:

١- التأكيد على أنَّ الإسلام؛ عقيدة، وشريعة، وأخلاقًا، يحمل مقومات قادرة على إنشاء الحضارة.

٢- إبراز الجوانب الحضاريَّة التي اشتمل عليها التراث الحضاري من الناحية العقديَّة، والتشريعيَّة، والأخلاقيَّة.

٣- تقديم الرؤية الإسلاميَّة لتأسيس الحضارة، وبيان العلاقة بين الدين والحضارة.

٤- الرد على اتهام الإسلام بأنَّه دين البداوة، وذلك من خلال نقض هذه الدعوات اعتمادًا على ما تضمنه التراث الإسلامي من مظاهر حضاريَّة.

الدراسات السابقة

١- دراسة للأستاذ الدكتور/ محمد البهي، بعنوان:« الدين الحضارة الإسلاميَّة» تناول فيها عن الحضارة والقيم الروحيَّة، ومقاييس الحضارة الإنسانيَّة من ناحية الكم والكيف، وأكَّد أن الدين مصدر رئيس في بناء الحضارة وتقدمها.

والفرق بين هذه الدراسة ودراستي أنني ركَّزت على العقيدة، والشريعة، والأخلاق كأسس لبناء الحضارة، بينما اعتنت دراسة الدكتور محمد البهي ببيان العلاقة بين الحضارة كمنتج بشري له صله بالقانون والفلسفة والفن والأدب، وعلاقة ذلك كله بالدين.

٢- دراسة للأستاذ الدكتور/ محمود حمدي زقزوق-عضو هيئة كبار العلماء، وزير الأوقاف الأسبق- بعنوان« الحضارة فريضة أسلاميَّة»،تحدث فيها عن مفاتيح

الحضارة، والميراث الحضاري، وأثر الفكرة الدينيَّة في الحضارة، وموقف المسلمين من الحضارة المعاصرة.

والفرق بين دراسة الدكتور زقزوق ودراستي هذه أنني ركزت الحديث عن أسس صناعة الحضارة، من الناحية العقديَّة، والتشريعيَّة، والأخلاقيَّة، معتمدًا على المنهج التحليلي لما في تراثنا الإسلامي من الناحية الحضاريَّة.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي.

خطة البحث:

وقد جاء هذا البحث في مقدمة وأربعة مباحث، وخاتمة، على النحو التالي:

المقدمة: ذكرت فيها: أهميَّة الموضوع، وسبب الكتابة فيه، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وخطته.

المبحث الأول: مفهوم الحضارة، ومفهوم العقيدة، والعلاقة بينهما.

المبحث الثاني: الأساس العقدي، ودوره في بناء الحضارة.

والمبحث الثالث: الأساس التشريعي، وعلاقته باستمراريَّة الحضارة.

المبحث الرابع: الأساس الأخلاقي، وعلاقته بالنسق الحضاري.

الخاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج التي أسفر عنها البحث، والتوصيات.

المبحث الأول

مفهوم الحضارة، ومفهوم العقيدة، والعلاقة بينهما

الحضارة في المعاجم العربيَّة تقابل البداوة، قال ابن منظور: «والحَضَرُ والحَضْرَةُ والحاضِرَةُ: خِلَافُ الْبَادِيَةِ، وَهِيَ المُدُنُ والقُرَى والرِّيفُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لأَن أَهلها حَضَرُوا الأَمصارَ ومَساكِنَ الديار التي لا يَكُونُ لَهُمْ بِهَا قَرارٌ، وَالْبَادِيَةُ يُمْكِنُ أَن يَكُونَ اشتقاقُ اسمِها مِنْ بَدا يَبْدُو أَي بَرَزَ وَظَهَرَ وَلَكِنَّهُ اسْمٌ لَزِمَ ذَلِكَ الموضعَ خَاصَّةً دونَ مَا سِوَاهُ؛ وأَهل الحَضَرِ وأَهل البَدْوِ. والحاضِرَةُ والحاضِرُ: الحَيُّ الْعَظِيمُ أَو القومُ؛ وَقَالَ ابْنُ سِيدَهْ: الحَيُّ إِذا حَضَرُوا الدارَ الَّتِي بِهَا مُجْتَمَعُهُمْ؛ قَالَ: [من البسيط]

فِي حاضِرٍ لَجِبٍ باللَّيلِ سَامِرُهُ ... فيهِ الصَّواهِلُ وَالرَّاياتُ وَالْعَكَرُ[1]

وهذا بدوره يعني أسلوبًا مختلفًا في التعامل مع الناس والأشياء، ونقلة فكريَّة؛ نظرًا لما بين مجتمع البداوة ومجتمع الحضر من فروق، وقد جعل ابن خلدون الحضارة غاية العمران[2]، ويرى(ألبرت إشفيتسر ١٨٧٥-١٩٦٥ Albertschweitzer) «أنَّ الحضارة بصورة عامة هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء»[3]، ومن ذلك يتضح أنَّ مفهوم الحضارة مرتبط بنقلة سواء أكانت نقلة مكانيَّة من البادية إلى الحضر، أو نقلة تقدميَّة في الفكر والسلوك وفي أساليب التعامل مع الناس والأشياء، وهذا الرقي والتقدم لا بد له من ضابط، وهذا الضابط يتمثل في إطار من العقائد والشرائع والقيم والمعايير التي تحكم أساليب التعامل، وبناءً على ذلك فإنَّ المعنى القريب الذي ترمي إليه كلمة الحضارة « هو غاية النفع والسعادة الناتجتين سريعًا من اتباع قوم من الأقوام أدق

---

(١) لسان العرب، محمد جمال الدين ابن منظور الأنصاري (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ، ١٩٧/٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الشعب، ص ٣٣٤.

(٣) فلسفة الحضارة لألبرت إشفيتسر– ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس ١٩٨٠م، ص ٣٤.

نظام وأرقاه من نظم الحياة»[1]، وأدق نظام وأرقى نظام تطمئن النفس إليه هو ما كان إلهي المصدر، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وهذا القرآن نزل ليوضح للإنسان طرقًا ونظمًا اجتماعيَّة وسياسيَّة واقتصاديَّة لم يكن على علم بها قبل نزوله؛ وذلك ليحقق له السعادة في الدارين.

وإذا كان مفهوم الحضارة -كما سبق- «هو غاية النفع والسعادة»، ولا تتحقق السعادة والنفع إلا من خلال الإنسان «فقد كان للإسلام دور كبير في تنبيه الأذهان إلى هذه الدائرة الجديدة، مؤكِّدًا على العنصر الإنساني الشامل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]»[2]، وكان هذا القرآن هو الوحيد القادر على صناعة حضارة تتفق وفطرة الإنسان؛ إذ إنَّ الإنسان خلق الله المستخلَّف، والقرآن منهج الاستخلاف ومجموع ضوابطه، وهنا تأتي الإشارة القرآنيَّة لتؤكِّد على هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وهذا التوجيه القرآني يقودنا إلى نقطة جديدة من البحث تتعلق بالإنسان، باعتباره صانع الحضارة من ناحية، وباعتباره خليفة مكلَّفًا بعقيدة وشريعة وأخلاق من ناحية أخرى، وهذا التكليف هو أساس صناعة الحضارة، وبالتالي فإنَّه من الضروري التعرف على الخصائص التي منحها الإسلام للإنسان لإنتاج الحضارة، وهذه الخصائص في جملتها هي مفاتيح الحضارة، وليس مقصدي من البحث التعرف على مفاتيح الحضارة، وإنما أقصد الكشف عن أسس بناء الحضارة، ولكن حتى تكتمل دائرة البحث أتطرق للحديث عن مفاتيح الحضارة على أساس أنها تكوِّن الخصائص الإنسانيَّة التي منحها

---

(١) من حضارة الإسلام، للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل، إصدارات المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة، الكتاب السادس والعشرون ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، ص ٣.

(٢) الحضارة فريضة إسلاميَّة، للدكتور محمود حمدي زقزوق، طبعة هيئة كبار العلماء، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م، ص٣٦.

الإسلام للإنسان لإنتاج الحضارة، وأهم هذه الخصائص هو التكريم، الذي امتن الله به على الإنسان، وجعل تكريمه قرآنًا يتلى، فقال:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ [الإسراء: ٧٠]، والتكريم وثيق الصلة بالحضارة، إذ لا يُتصوَّر عقلًا أن يكرِّم الله الإنسان، ثم يذره على حالة البداوة، ومن مفاتيح الحضارة الاستخلاف، فالله عز وجل خلق الإنسان بيده، وأسجد له ملائكته ونفخ فيه من روحه، وجعله خليفة في الأرض، فقال:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٨-٣١]، وقوله تعالى:﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]، « ومفهوم العمارة هنا مفهوم شامل لكل ألوان التعمير المادي والمعنوي»[1].

ومن مفاتيح الحضارة التي منحها الإسلام للإنسان العلم، قال تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[البقرة:٣١]، والحضارة بكلِّ مفرداتها قائمة على العلم بمفهومه الإسلامي الواسع، ولا يتصور وجود حضارة دون علم، وكان العلم مما امتن الله به على العرب: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

وكان من مفاتيح الحضارة لهذه الأمَّة القراءة التي هي وسيلة تحصيل العلم الذي هو مفتاح الحضارة، قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[العلق:١-٥]، وبين التعليم الأول لسيدنا آدم عليه السلام، والوحي الأخير لسيدنا محمد ﷺ سارت البشريَّة خطوات كبيرة في سلم الإعمار

(١) الحضارة فريضة إسلاميَّة، ص ٢٠.

وصنع الحضارة، «وهذه الصفات التي منحها الإسلام للإنسان ليست إلا ظلالًا وفيوضات من صفات الربوبيَّة، أنعم الله بها على هذا المخلوق، ليستعين بها في أداء رسالته، ولتيسر له السبيل إلى تحقيق خلافته على الأرض؛ فينشئ فوقها الحضارة الإنسانيَّة المثلى التي حمَّله القرآن مسؤوليَّة إنشائها في قوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]»[(١)]، ولا يخفى أنَّ هذه المفاتيح الحضاريَّة جاءت تؤصل للعقيدة، من منطلق أن الخطاب القرآني خاطب بها الإنسان على أساس أنها وحي من الله سبحانه وتعالى، والإيمان بالوحي والاستجابة له من لوازم العقيدة.

العقيدة: مفهومها، وعلاقتها بالحضارة:

وبعد الحديث عن مفاتيح الحضارة التي امتن الله بها على الإنسان جدير بنا أن نتحدث عن مفهوم العقيدة التي يعتقدها الإنسان، وعلاقتها بالحضارة؛ وذلك لأنَّ الإنسان إذا امتلك مفاتيح الحضارة دون عقيدة سليمة توجِّه نظره، وتضبط حركته كان إنتاجه الحضاري وبالًا عليه، وبالتالي فتحرير مفهوم العقيدة مبحث مهم في الحديث عن أسس صناعة الحضارة، والعقيدة في اللغة هي من « اعْتَقَدْتُ كَذَا، عَقَدْتُ عَلَيْهِ الْقَلْبَ وَالضَّمِيرِ، حَتَّى قِيلَ: الْعَقِيدَةُ مَا يَدِينُ الْإِنْسَانُ بِهِ وَلَهُ عَقِيدَةٌ حَسَنَةٌ سَالِمَةٌ مِنْ الشَّكِّ، وَاعْتَقَدْتُ مَالًا جَمَعْتُهُ»[(٢)]، والعقيدة في الاصطلاح:« ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل»[(٣)]، و«العقيدة هي التصديق الجازم المطابق للواقع، المأخوذ عن دليل»[(٤)]، ومن

---

(١) منهج الحضارة الإسلاميَّة في القرآن الكريم، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر- دمشق- سوريَّة، الطبعة الثانية عشرة ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م، ص٤٢.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية – بيروت، مادة (ع ق د)٢/٤٢١.

(٣) كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م، ص١٤٥.

(٤) المحصول في أصول الفقه، لفخر الدين الرازي، الطبعة: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، ص٢٢.

خلال هذه التعريفات نستطيع أن نقرر أن العقيدة« فكرة مركزيَّة أوجدت عند صاحبها من الثبوت واليقين ما جعلها تستقرُّ في القلب، وما جعل القلب ينعقد عليها، فلا ينفك عنها، وهي بهذا تتمكن في القلب وتتملَّكه وتتحكم في جميع ما يرد عليه أو يصدر عنه من أفكار وأحاسيس، أو مشاعر وعواطف، أو رغبات وميول، أو نزعات واتجاهات»(١).

علاقة العقيدة بالحضارة

الحضارة التي لا ترتكز على عقيدة سليمة من العيوب خالية من الآفات حضارة هشة ضعيفة؛ لأنَّ صانعها لا تقوده عقيدة تصله بخالقة، فتضطرب عنده الحضارة، وبدلًا من أن تحقق الحضارة له لذة العيش في الدنيا، وحسن المآل في الآخرة نجدها تنغص عليه حياته، ولعل خير ما يمثل ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طـــه: ١٢٤-١٢٧]« فالمؤمن بعقيدة التوحيد الذي أسلم وجهه لله، تربطه بالله صلة وطيدة، وعلاقة وثيقة، .. وهذه الصلة تصحبه في مواجهته لتصاريف دنياه، فتحدد له مساره، وترسم له أسس علاقته بالناس، وتضبط له قواعد سلوكه ومعاملاته، وتزن فيه عواطفه ومشاعره ووجدانه تجاه الأفراد والجماعات، وتجاه الأحداث والملابسات، بحيث تبرز من خلال ذلك بناءً إنسانيًّا متكاملًا منطبعًا بطابع هذه العقيدة الفطريَّة القويمة؛ عقيدة التوحيد»(٢).

ومن ثَمَّ فإنَّ العقيدة تفرض على معتنقيها التزامات خاصة وعامَّة، وهذه الالتزامات توجِّه وتصرِّف حركة الإنسان في الكون، وتضبط إنتاجه الحضاري المادي بمقوماتها الروحيَّة، فإذا كانت الحضارة من وجهة نظر البعض تعني البناء وتشييد المصانع وإنشاء

(١) العقيدة وبناء الإنسان، للأستاذ الدكتور عبد الفتاح بركة، طبعة هيئة كبار العلماء، ط أولى١٤٤٥هـ/٢٠٢٣م، ص ١٥٤.

(٢) السابق ص٦٩.

الدواوين، فإن من ورائها قلب ينظر إلى مراد الله من هذه الصنائع والمنجزات، فيطوعها لمرضاة الله، ومن ثمَّ تحقق له السعادة في الدنيا والثواب في الآخرة، وإذا كانت الحضارة تعني الرقي الأخلاقي فإنَّ الأخلاق المرتبطة بالعقيدة لا تحتمل النسبية، وبالتالي فإن الإنسان المتحضر هو الذي يلازم الأخلاق على كلِّ حال، وهكذا نجد ارتباطًا وثيقًا بين العقيدة والحضارة، بما يؤكِّد أنَّ ارتباط العقيدة بالحضارة ليس مجرد دعوى أو فلسفة، بل إنها أساس ضروري لإنتاج حضارة تسعد بها البشريَّة، وفي ضوء هذه المعاني نستطيع أن نفهم قوله تعالى ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود :٦١]، ويظهر بوضوح تأكيد المعتقد في قوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ وهو إفراد الله بالعبوديَّة، والإقرار بوحدانيَّته، وعلاقة ذلك بالإنشاء والاستعمار ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

ولا يختلف عاقلان في أنَّ خلو الحضارة من العقيدة حوَّلها إلى كابوس يطارد صناعها، بل يطارد الأحياء على وجه الأرض؛ لأن مفاتيح الحضارة كما سبق أن أشرنا مرتبطة بالقراءة التي هي أداة العلم والتحصيل، الذي هو اللبنة الأساس في النسق الحضاري، وكانت الإشارة الأولى واضحة أن تكون القراءة «باسم ربك الذي خلق»، فلما عزلت الحضارة الدين، واصطنعت العداوة بين العلم والدين كانت وبالًا على أصحابها، ومن هنا تبرز العلاقة واضحة بين الحضارة والعقيدة، وهذا يقودنا للحديث باستفاضة حول الأساس العقدي، ودوره في بناء الحضارة، وهو موضوع المبحث الثاني.

المبحث الثاني

الأساس العقدي، ودوره في بناء الحضارة

إن الحديث عن الحضارة لا ينفك بحال من الأحوال عن الإنسان، والإنسان إمَّا أن يكون صاحب عقيدة تتحكم في انفعالاته، وترشد سلوكه، وإمَّا ألَّا يكون صاحب عقيدة، والخطاب القرآني بنى مسألة العمران التي تعادل في معطياتها الدلاليَّة مصطلح الحضارة على العلاقة بين العبد وربِّه، فقال تعالى ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١]، وهذه الآية الكريمة تؤكِّد العلاقة بين استعمار الأرض وبين العقيدة، ومن ناحية أخرى إذا سأل الإنسان نفسه من الذي سخَّر له الكون كلَّه ليطاوعه في إنشاء حضارة؟ سيجد الإجابة في قوله تعالى﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ولولا هذا التسخير ما كانت لتقوم حضارة في الأرض، ومن ثَمَّ فإن النشأة الأولى والاستعمار كان من الله، والتسخير لتسهيل عملية الاستخلاف من الله، فالله في كل شيء في البداية خلق، وسخر، وفي النهاية إليه المصير، يحاسب ويكافئ ويثيب ويعاقب، وبناء عليه فالعقيدة أساس في البناء الحضاري؛ «إذ إنها فكرة مركزيَّة أوجدت عند صاحبها من الثبوت واليقين ما جعلها تستقرُّ في القلب، وما جعل القلب ينعقد عليها، فلا ينفك عنها، وهي بهذا تتمكن في القلب، وتتملَّكه، وتتحكم في جميع ما يرد عليه، أو يصدر عنه من أفكار وأحاسيس، أو مشاعر وعواطف، أو رغبات وميول، أو نزعات واتجاهات»[1]، ولاشك أنَّ الحضارة ثمرة طبعيَّة للأفكار والأحاسيس والعواطف والرغبات؛ إذ إنها تمثل تغذية هذه الجوانب لدى الإنسان، وتترجم أفكاره إلى منجزات

(١) العقيدة وبناء الإنسان، للأستاذ الدكتور عبد الفتاح بركة، طبعة هيئة كبار العلماء، ط أولى١٤٤٥هـ/٢٠٢٣م، ص ١٥٤.

ومخترعات.

والخطاب القرآني ينبه الإنسان دائمًا إلى حقيقتين أساسيتين في صنع الحضارة، الحقيقة الأولى: أنَّ الإنسان- باعتباره المكلف بالاستخلاف- عبد ذليل خاضع لسلطان الله، والحقيقة الثانية: أنَّه مخلوق مكرَّم مشرَّف يحمل الرسالة التي من مقتضياتها بناء الحضارة، وهذه عقيدة تجذرت في الإنسان منذ خلقه الله، ونفخ فيه من روحه، وكان من ثمرة هذا التنبيه القرآني للإنسان « أن من شأن الذي ربيت أحاسيسه ونفسه على هاتين الحقيقتين أن تتنامى في كيانه وتحت سلطانه مشاعره وجداناته، وهويته الإنسانيَّة الكاملة؛ فلا يتصرف إلا بوحي من هذه الهويَّة التي آمن بها أتمَّ ما يكون الإيمان، ثم هيمنت على عواطفه ودوافعه السلوكيَّة في سائر التقلبات والأحوال»[1]، ونتيجة لهذا التصور تنمو الحضارة وتزدهر؛ لأنَّ وراءها قلب مؤمن عامر بعقيدة راسخة، تحتم عليه عمارة الأرض وفق مقتضيات عقيدته التي آمن بها.

وتأكيدًا على فكرة العقيدة كأساس لبناء الحضارة نراجع حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده، فنرى فارقًا كبيرًا بين أناس يئدون بناتهم، ويشربون الخمور، فتغيب عقولهم، وغير ذلك مما امتلأت به بطون دواوينهم الجاهليَّة، وبين أناس رسم النبي ﷺ ملامح مجتمعهم بقوله:« مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[2]، فالذي غيَّر صورة هذا المجتمع من مجتمع جاهلي، يئد البنات إلى مجتمع متحضر يتراحم ويتعاطف هي العقيدة، ومن ثمَّ فإنني أتفق مع مالك بن نبي في قوله: «فالحضارة لا تظهر في أمَّة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعة ومنهاجًا، أو هي- على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام،

(١) منهج الحضارة الإنسانيَّة في القرآن، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ص٤٤.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، حديث رقم (٢٥٨٦)، ١٩٩٩/٤.

فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيدًا عن حقبته؛ إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته، وتتفاعل معها»[1].

وإذا كانت الحضارات اليوم تقاس بالتقدم المادي في الصناعات، فإن القرآن الكريم نظر إلى الصناعات عمومًا نظرة اعتناء، لكن مع ربطها بالمكون العقدي، وهنا تتمايز الحضارة الإسلاميَّة التي أسسها القرآن الكريم على العقيدة؛ ولذا نجده يلوم قومًا اتخذوا مصانع وخلت أفئدتهم من المعتق الصحيح، فكفروا ربهم، وجحدوا نعمته، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣١]، فهذا خطاب قرآني قدَّم لنا تجربة لقوم بلغوا ذروة المجد في صناعة الحضارة، خاطبهم نبيهم بأن تكون العقيدة سليمة، لنضمن بها حضارة تتسق مع فطرتنا؛ لذلك نحن مطالبون اليوم ونحن نحاول استعادة مجدنا الحضاري أن نرسّخ للعقيدة في قلوب الأُمَّة، بحيث تنصرف كلُّ الأعمال والمنجزات لإرضاء الله تعالى، ولعله من تمام الحديث في هذا المبحث أن نقدِّم بين يدي القارئ الرؤية النبويَّة في صناعة الحضارة في مظهرها الصناعي، «فعَنْ أَبِي ذَرٍّ ، قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ» قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا، أَوْ تَصْنَعُ لأَخْرَقَ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ

(١) شروط النهضة، مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، دار الفكر-دمشق سورية، ١٩٨٦م، ص ٤٩.

النَّاسِ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ» [1]، فمسألة التأسيس للصناعة في هذا الحديث مرتبط بالإيمان بالله تعالى، وتترقى المفاهيم النبويَّة لتجعل كف الشر عن الناس لون من ألوان الحضارة، وذلك في حالة عدم القدرة علة تقديم النفع لهم، وبذلك يتضح أن العقيدة ركن أصيل في الفكرة الحضاريَّة لهذه الأُمَّة.

مقتضيات العقيدة

وبناء على ذلك فإنَّ العقيدة لا بد أن تفرض على المؤمن بها التزامات وواجبات خاصة وعامة، وعقيدة التوحيد تفرض هذه الالتزامات في جميع شئون الحياة، فلا تترك فيها مجالًا إلا وتحدد فيه منهجًا ومسلكًا توحيديًّا يرتبط بالله، ويؤكِّد معنى الاستسلام لله، وتضيف إلى ذلك صورًا واقعيَّة تعيد تذكير الإنسان بهذه الحقيقة كلما استغرقته مختلف الأحداث والتصرفات، وإذا كانت هذه مقتضيات العقيدة فإنَّ الحضارة التي يصنعها الإنسان وَفْقَ هذه المقتضيات حضارة ربانيَّة المصدر، تصل الدنيا بالآخرة، وتصل الأرض بالسماء، وتصل الإنسان بخالقه، وتعمل على تحقيق الجانب الروحي والمادي، وتحقق ذات الإنسان وتقاوم أنانيته، وتضبط شهواته ونزواته، وتسمو بإنسانيته على حيوانيته.

وهذه الحقيقة التي تصوغها الرؤية الإسلاميَّة في بناء الحضارة كفرت بها الرؤية الغربيَّة في بناء حضارتها، وبذلك تمايزت الحضارة الإسلاميَّة في جميع أطوارها بأنها حضارة أساسها المعتقد، وما يفرضه المعتقد من التزامات خاصة وعامة، تضمن اتساق الحضارة ومعطياتها مع الفطرة الإنسانيَّة، هذا ما أكَّده عليه الماوردي عندما تحدث عن قواعد إصلاح الدنيا وانتظام عمرانها، فقال:« اعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ تَصْلُحُ الدُّنْيَا حَتَّى تَصِيرَ أَحْوَالُهَا مُنْتَظِمَةً، وَأُمُورُهَا مُلْتَئِمَةً، سِتَّةُ أَشْيَاءَ هِيَ قَوَاعِدُهَا وَإِنْ تَفَرَّعَتْ، وَهِيَ: دِينٌ مُتَّبَعٌ

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كِتَابُ الإِيمَانِ، باب الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، حديث رقم(١٦٣)،١/٦٢.

وَسُلْطَانٌ قَاهِرٌ، وَعَدْلٌ شَامِلٌ، وَأَمْنٌ عَامٌّ، وَخِصْبٌ دَائِمٌ، وَأَمَلٌ فَسِيحٌ»[1]، فنراه جعل الدين المتبع الأساس الأول في عمران الدنيا، واستقامة أحوالها.

وفي ضوء هذه المعطيات نستطيع أن نفسر وفرة النتاج العلمي للحضارة الإسلاميَّة في باب العقيدة، وتحديد علاقة الإنسان بخالقة، والتركيز اللافت للانتباه في ثراء المكتبة الإسلاميَّة بكتب العقيدة، وعلاقة هذه الكتب بالحضارة الإسلاميَّة التي ما كادت شمسها تغيب عن بقعة من بقاع العالم الإسلامي حتى تشرق في بقعة أخرى [2].

وقبل أن ألقي عصا البحث في هذه الجزئيَّة أؤكد أنَّ العقيدة تعمل على تحرير العقل من الخرافة، وتحرير الوجدان من الهوى، والتأثر بالبيئات وعاداتها، التي ربما تكون فاسدة، وتحرير الإرادة من التعطيل يطلق حركة التعمير والبناء، ولا شك« أن تحرير العقل يفتح باب العلم، وتحرير الوجدان بقيم روابط الأخوة الإنسانيَّة، وتحرير الإرادة يعين على الابتكار والإبداع، واستقرار العقيدة يملأ النفس أمنًا وسكينة، فتفيض منها رحمة عامة تزدان فيه بحلية التواضع والحياة»[3]، وإذا تحرر العقل والوجدان والإرادة انطلقت الحضارة في جميع ميادين الحياة، وإذا طبقنا هذا التحرير على مجتمع العرب قبل الإسلام وبعده، وقارنَّا عقولهم التي ملأتها الخرافة، وسيطرت عليها الوثنيَّة قبل

(١) أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ) دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م، ص ١٣٣.

(٢) لا يسعني المقام لذكر كتب العقيدة، لكن منها على سبيل المثال: ١. شرح العقائد النسفية، تأليف الإمام سعد الدين التفتازاني، وهو شرح للعقيدة النسفية للإمام نجم الدين النسفي. ٢. جوهرة التوحيد، تأليف الإمام إبراهيم اللقاني٣. العقيدة الطحاوية، للإمام أبو جعفر الطحاوي. ٤. الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تأليف الإمام الجويني (إمام الحرمين).٥. الخريدة البهية في علم التوحيد، للإمام أحمد الدردير. فهذه المؤلفات وغيرها اهتمت بترسيخ الجانب العقدي في الإنسان؛ لصقله بالمواهب التي تؤهله لبناء الحضارة على أساس من معرفة خالقه، والتزام أوامره واجتناب نواهيه؛ مما يؤثر إيجابًا في صناعة الحضارة.

(٣) العقيدة وبناء الإنسان، للأستاذ الدكتور عبد الفتاح بركة، ص ١٣.

الإيمان، وعقولهم التي أبدعت وأنتجت العلوم والمعارف بعد الإسلام، ووجدانهم الفاسد قبل الإسلام ووجدانهم المستقيم المعتدل بعد الإسلام، وما ترتب على ذلك من قيام أواصر الأخوة التي حلت محل العداوة، وإرادتهم المعطلة قبل الإسلام، وابتكاراتهم وإبداعاتهم بعد الإسلام، أدركنا بوضوح دور العقيدة في البناء الحضاري، «والحق أن إشراق العقيدة يجب ألا يغيب عن عمل ما، وأن عروة الإيمان يجب أن تشتبك بكل تصرف، وأن مراقبة العزيز الحكيم يجب أن تضبط كل عاطفة»[1]، وبذلك تبنى الحضارة على أساس من العقيدة التي تراقب كل جزئية في النسق الحضاري، وبذلك تتمايز الحضارة الإسلاميَّة عن غيرها من الحضارات، فهي ربانيَّة المصدر، إنسانيَّة الهدف والمقصد.

وإذا تقرر لدينا أن العقيدة ركن أصيل في بناء الحضارة، فإننا نخلص من ذلك إلى عدة أمور، لا يمكننا تجاوزها في هذا المبحث، وهي على النحو الآتي:

أولًا: ما سبب هلاك الحضارات السابقة؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقرر ما قرره القرآن الكريم من أن انفكاك الإنسان عن مقتضيات العقيدة، وكفره كان سببًا مباشرًا في هلاك هذه الحضارة، وصيرورتها أثرًا بعد عين، وهذه سنة كونيَّة لا تتخلف، فأي حضارة لا ترتكز على عقيدة التوحيد، وتخاصم الدين هي إلى زوال؛ لأنها بذلك عطلت قانون النشأة الحضاريَّة، وصارت ضد طبائع الأمور، ولا يمكن أن تُبنى حضارة حقيقيَّه بقانون معطَّل، أو بمخالفة طبائع الأشياء، والشاهد على ذلك حديث القرآن الكريم عن حضارات عاد، وثمود، وفرعون، وغيرها كثير، يقول تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦-١٤]، وقد صرف القرآن الكريم انتباهنا لدراسة الحضارات السابقة، والوقوف على أسباب

(١) كيف نفهم الإسلام، للشيخ محمد الغزالي، دار نهضة مصر للنشر، الطبعة الثالثة عشرة، ٢٠١٧، ص١٣٣.

هلاكها؛ حتى نتجنب هذه الأخطاء، وتسلم لنا الحضارة، فقال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩]، فهذه حضارات شهد لها القرآن الكريم بالعظمة، ومع ذلك انهارت، وتداعت أركانها، وفي هذا عبرة لكلِّ من أراد أن يبحث عن أساس لبناء الحضارة، أن يربطها بالله سبحانه وتعالى، وهنا تأتي الإشارة القرآنيَّة لتؤكِّد مسألة الاعتبار والاتعاظ القائمة على التدبر والبحث والتحليل في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم: ٩].

ثانيًا: هل التمسك بالدين والاعتداد بالعقيدة، وما تفرضه العقيدة من تصرفات يتنافى مع الحضارة؟

بالطبع لا، بل إنَّ الحضارة بعيدًا عن الدين لا تُعَدُّ حضارة، بل تعد نزقًا بشريًّا، ومرضًا اجتماعيًّا، وهنا لا بد أن نشير إلى أمر في غاية الخطورة، وهو اتهام الإسلام بأنَّه ضد التقدم والتحضر، وأنَّه دين البداوة والتخلف والرجعيَّة، وأنَّ معطياته غير قادرة على صناعة حضارة، «فقد علت أصوات ظالمة تحاول أن تقنع المسلمين والعرب بأنَّ الدين معوق عن التقدم، ومانع من النهضة، وأنَّ على العرب والمسلمين إذا أرادوا التقدم أن ينفصلوا عنه»[1]، وهذا مخالف للواقع، فالإسلام قد أقام حضارة زاهرة كانت أطول الحضارات عمرًا في التاريخ، وقد امتدت من أقصى الصين شرقًا إلى أقصى الأندلس غربًا، «وهذا يعني أنَّ الإسلام في الواقع العملي وليس النظري فقط يشتمل على كلِّ

(١) مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، للأستاذ أنور الجندي، الأزهر الشريف، سلسلة البحوث الإسلاميَّة، الكتاب الثاني، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م. ص٨٢.

المقومات الأساسية لبناء الحضارة»[1]، وأمَّا عن مجافاة الإسلام للعلم الذي هو مفتاح الحضارة، فالحقيقة أنَّ عقيدة التوحيد هي عقيدة العلم؛ بمعنى أنَّ العلم يشهد لها، ويدل عليها، ويقود في النهاية إليها، ويلزم أصحاب العقول والضمائر باتباعها والإيمان بها، ومن ثَمَّ فالقول بأنَّ الإسلام، وعقيدته يتنافى مع بناء حضارة محض وهم، لا سند له من كتاب ولا سنة ولا تاريخ، وقد قرر الفلاسفة المنصفون أنَّه «ليس في حقيقة العلم بما هو علم ولا في حقيقة الدين بما هو دين ما يفرض بينهما تناقضًا يوجب وقوع الصراع بينهما، بل على العكس من ذلك يحكم العقل بأنهما لا بد أن يتفقا ويتساوقا في إطار واحد»[2]، بل إننا نستطيع أن نقرر من خلال استقرائنا للحضارة الإسلاميَّة أنَّ ما وصلت إليه الأُمَّة اليوم من تخلف حضاري سببه تفريطنا في معطيات الإسلام، وتجاهلنا لمقتضيات العقيدة، يقول مالك بن نبي :«التخلف هو عقوبة إلهية أوقعها الإسلام بأتباعه؛ جزَّاء تخلِّيهم عنه، إنّ المسلمين تأخروا؛ لأنَّهم تركوا الإسلام، لا لأنهم تمسكوا به، فحقّ عليهم قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه:-١٢٤] [3]، ولذلك فإنَّ الأُمَّة اليوم مطالبة بتفعيل عقيدتها في بناء حضارة راقيَّة، تحترم الإنسانيَّة وخصائصها، بهد أن أهانتها الحضارة الغربيَّة.

(١) الحضارة فريضة إسلاميَّة، للأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، ص٦١.

(٢) حاجة العصر إلى حياة روحيَّة، للأستاذ الدكتور عبد الفتاح بركة، عضو هيئة كبار العلماء، إصدار هيئة كبار العلماء، الطبعة الأولى، ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م، ص٣٦.

(٣) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي: القاهرة: ١٩٧١ ص: ٧٦.

المبحث الثاني

الأساس التشريعي، وعلاقته باستمراريّة الحضارة

انتهينا في المبحث السابق إلى أنَّ العقيدة ركن ركين في البناء الحضاري، وأنَّ العقيدة تفرض على أصحابها مقتضيات عامَّة وخاصَّة، وهذه المقتضيات تنزع عنها التصرفات والتفاعلات التي ينتج من احتكاكها صنع الحضارة، وأنَّ هذه التفاعلات يقوم بها الإنسان وَفْقَ ما تفرضه عليه عقيدة التوحيد من ربط كل منجزاته بالله -عز وجل- على أساس أنَّ مفتاح العلم القراءة، والعلم -بمفهومه الإسلامي وليس الغربي- منطلق الحضارة، والقراءة مرتبطة بالأمر الإلهي ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [سورة العلق ١، ٢].

ومن مقتضيات العقيدة الالتزام بالشريعة، وهذا المبحث يفرض طبيعة خاصة لترسيم العلاقة بين الحضارة والشريع؛ حتى يتضح كيف أنَّ الشريعة ركن أصيل في بناء الحضارة، ومن ثَمَّ فمن الضروري تعريف الشريعة، وتقسيمها باعتبارات حضاريَّة، والربط بين أوامرها ونواهيها والبناء الحضاري، وعلى هذه المحاور سيدور حديثنا في هذا المبحث.

أولًا: تعريف الشريعة: الشريعة تُطلقَ في اللغة على: مورد الماء، ومنبعه، ومصدره، كما تُطلق على الدين والملة والطريقة والمنهاج والسنة، والشريعة والشرع والشِّرْعة بمعنًى واحد، ووجه إطلاق الشريعة على منبع الماء ومصدره أنَّ الماء مصدر حياة الإنسان والحيوان والنبات، وأنَّ الدين الإسلامي مصدر حياة النفوس وصلاحها وتقدمها وسلامتها في الدنيا والآخرة؛ قال ابن منظور: «والشَّريعةُ والشِّراعُ والمَشْرَعةُ: المواضعُ الَّتِي يُنْحَدر الْمَاء مِنْهَا، قَالَ اللَّيْثُ: وَبِهَا سُمِّيَ مَا شَرَعَ الله للعبادِ شَريعةً من الصَّوْمِ والصلاةِ وَالْحَجِّ وَالنِّكَاحِ وَغَيْرِهِ»[1]، وجاء في المصباح المنير:« الشِّرْعَةُ بِالْكَسْرِ الدِّينُ وَالشَّرْعُ وَالشَّرِيعَةُ مِثْلُهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَهِيَ مَوْرِدُ النَّاسِ لِلِاسْتِقَاءِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ؛

(١) لسان العرب ١٥٧/٨.

لِوُضُوحِهَا وَظُهُورِهَا، وَجَمْعُهَا شَرَائِعُ، وَشَرَعَ اللَّهُ لَنَا كَذَا يَشْرَعُهُ: أَظْهَرَهُ وَأَوْضَحَهُ»[1]، والشريعة: هي الائتمار بالتزام العبودية، وقيل: الشريعة: هي الطريق في الدين[2]، فعلى هذا: الشريعة الإسلاميَّة مصدر كل الخير والرخاء والسعادة في العاجل والآجل، في المعاش والمعاد، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]»[3].

ومن خلال هذه التعريفات نجد ارتباطًا وثيقًا بين الشريعة والحضارة، ويتجلى هذا الارتباط في مقاصد الشريعة، فما هي مقاصد الشريعة؟ وما علاقتها بالبناء الحضاري؟

مقاصد الشريعة، وعلاقتها ببناء الحضارة:

المقاصد: غايات ومصالح ومنافع ولذائذ، رُكب في النفس البشريَّة السعيُ إليها والانجذاب نحوها، فهي زهرة هذا الوجود، ومطمح القلب، وطلبة كل راغب، وبغية كل قاصد، تضع للسالكين مناهج سيرهم، وترسم لهم سبيلهم، التي ارتضاها الله لهم خصوصاً، وينبوع الهداية فيها التشريع الإسلامي، ومتفجَّرها ما ورد بشريعتنا الغراء من هدي وحكمة، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وعلى ذلك فإنَّ مقاصد الشريعة التي تضبط حركة العمران، ويتحرك في دائرتها الإنسان، ويتدور في فلكها المنجزات الحضاريَّة على تنوعها «تَرْجِعُ إِلَى حِفْظِ الْمَقَاصِدِ،

---

(١) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبي العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ) المكتبة العلمية – بيروت، ١/٣١٠.

(٢) التعريفات للجرجاني ص١٢٩.

(٣) علم المقاصد الشرعية، نور الدين بن مختار الخادمي، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ص ١٤.

التي بها يكون صلاح الدارين، وَهِيَ: الضَّرُورِيَّاتُ، وَالْحَاجِيَّاتُ، وَالتَّحْسِينِيَّاتُ، وَمَا هُوَ مُكَمِّلٌ لَهَا وَمُتَمِّمٌ لِأَطْرَافِهَا، وَهِيَ أُصُولُ الشَّرِيعَةِ، وَقَدْ قَامَ الْبُرْهَانُ الْقَطْعِيُّ عَلَى اعْتِبَارِهَا، وَسَائِرُ الْفُرُوعِ مُسْتَنِدَةٌ إِلَيْهَا؛ فَلَا إِشْكَالَ فِي أَنَّهَا عِلْمٌ أَصِيلٌ، رَاسِخُ الْأَسَاسِ، ثَابِتُ الْأَرْكَانِ»(١).

وإذا قسمنا الحضارة وفروعها على هذا التقسيم الثلاثي –الضروريات، و الحاجيات، والتحسينيات– سنجد أن هذه المقاصد جامعة لكل الألوان الحضارية، ضابطة لها بضابط الشرع؛ إذ إنَّ «حفظها وجودًا في جلب المصالح وتكثيرها؛ فكل طاعة ترجع إليها، وعدمًا في درء المفاسد وتقليلها؛ فكلُّ مخالفة خارجة عنها، وذاك في أصنافها الثلاثة: "الضروريات"، و"الحاجيات"، و"التحسينيات"؛ فيكون في كلِّ كلية ستة جوانب: ثلاثة وجوديَّة، وثلاثة عدميَّة، الجميع ثلاثون مقصدًا، عشرة ضروريَّة، وعشرة حاجيَّة، وعشرة تحسينيَّة، وأجمع آية لها في كتاب الله –تعالى– قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]»(٢)؛ وهذا النص يوضح لنا الارتباط الوثيق بين مقاصد الشريعة المتمثلة في الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات، وبين الكليات الخمس المتمثلة في: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال؛ وما ينتج عن ذلك من آثار حضاريَّة ذات طابع إسلامي.

وهذا يؤكِّد أنَّ الشريعة أساس في بناء الحضارة، وبغير الشريعة تكون المنجزات الحضاريَّة أمراضًا اجتماعيَّة تحتاج لعلاج، وليست حضارة، «ولا يجوز أن يغيب عن أذهاننا أنَّ هدف الحضارة هو الإنسان قبل أي شيء آخر، وفي تأكيدنا على معنى الإنسان وكرامته وحريته لا نعدو قول الحقِّ إذا قلنا: إنَّ الحضارة –أي حضارة– تنتهي

(١) الموافقات، للشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ١/١٠٨.
(٢) السابق، ١/١.

عندما تفقد في شعورها معنى الإنسان»[1] ،وبما أنَّ الإنسان هو هدف الحضارة وموضوعها، اعتنت الشريعة بحفظ الإنسان، فنتج عن ذلك ما عُرف «بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الضَّرُورِيَّاتِ الْخَمْسِ –وَهِيَ: الدِّينُ، وَالنَّفْسُ، والعِرْضُ، وَالْمَالُ، وَالْعَقْلُ– وَعِلْمُهَا عِنْدَ الْأُمَّةِ كَالضَّرُورِيِّ»[2].

وهنا نؤكِّد مرة ثانيَّة أنَّ الشريعة وَفْقَ هذا التصور ركن أصيل في بناء الحضارة، فإذا ما رجعنا إلى تراثنا الإسلاميِّ خاصة في كتب الفقه، ومذاهبه الأربعة الكبرى– الحنفيَّة والمالكيَّة والشافعيَّة والحنبليَّة– وتتبعنا هذا التراث وجدناه محمَّلًا بحصيلة ضخمة جاءت لتحقيق الضروريَّات، وبيان رأي الشريعة في الحفاظ عليها، «وإذا كانت هذه الضروريَّات قد شملت الديني والدنيوي، بمعنى العبادات الخاصة، ومقومات العمران الدنيوي[الحضارة]، فإنَّ الرؤية الإسلاميَّة قد رتبت أولويات هذه الضرورات ترتيب تقديم، لا ترتيب تشريف على النحو الذي جعل ويجعل إقامة قواعد الأمن الاجتماعي السبيل لإقامة شعائر الدين، فصلاح الدنيا بالأمن على مقومات العيش الإنساني الآمن، هو الأساس والطريق لصلاح الدين، بالمعرفة للخالق ودينه، وبالعبادة له وَفْقَ مناسك هذا الدين»[3]، وإذ كان تحقيق الأمن وتوفير مقوِّمات العمران من الضروريَّات التي شملها المقصد الأول من مقاصد الشريعة فإنَّ يقيننا يزداد بأنَّ الشريعة الإسلاميَّة أساس لبناء حضارة تحقق الأمن، وتنمي العمران، وأن تراثنا الفقهي ذاخر بمقومات مشروع حضاري رباني المصدر.

وهذه الحقيقة من حقائق الرؤية الإسلاميَّة في تأسيس الحضارة على الشريعة يصورها حجة الإسلام أبو حامد الغزالي فيقول: «إنَّ نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا... نظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن وبقاء الحياة

(١) الحضارة فريضة إسلاميَّة للأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، ص٤٧.

(٢) الموافقات ٣١/١.

(٣) الإسلام والأمن الاجتماعي، للأستاذ الدكتور محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة، الثانية ٢٠٠٧، ص٢١.

وسلامة قدر الحاجات من الكسوة والمسكن والأقوات، والأمن هو آخر الآفات، ولعمري من أصبح آمنًا في سربه، معافًى في بدنه، وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها، وليس يأمن الإنسان على روحه وبدنه وماله ومسكنه وقوته في جميع الأحوال، بل في بعضها، فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضروريَّة، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة، فإذن بان نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة شرط لنظام الدين»[1]، وهذا الكلام يوضِّح أن ما بُنيت عليه الحضارة من تقسيمات إداريَّة للمجتمع، بحيث تنشغل كلُّ طائفة منه بعمل يفيد بقية الطوائف ويصبح مجموع الأعمال هو الحضارة، حيث تنشغل فئة بالحراسة، وفئة بالتأمين، وفئة بالزراعة، وفئة بالصناعة، وفئة بالبناء والتشييد، وفئة بالعلم والتعليم إلى آخر ذلك مما يمثِّل في مجموعه كفاية الأُمَّة، ويحقِّق عمرانها، ويطلق عليه حضارة، يفهم ذلك من قوله: «وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة، وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل»، وكل هذه الحرف والأعمال مشمول بأحكام الشريعة، واقع تحت مظلتها، في ضوء الأوامر والنواهي التي اشتملت عليها نصوص الشريعة، وهذا يقودنا إلى نقطة جديدة في هذا البحث عنوانها:

أثر أوامر الشريعة ونواهيها في بناء الحضارة:

بعد أن انتهينا من تحقيق التلازم بين الحضارة والشريعة، حتى إذا غابت الشريعة انعدمت الحضارة، وإن وُجدت مظاهرها الماديَّة من مبانٍ فارهة، وطرق مرصوفة، ومخترعات متعددة، نبحث أثر أوامر الشريعة ونواهيها في بناء الحضارة، فباستقراء أدلة الوحيين أظهرت اليقينَ بأنَّ أحكام الشريعة الإسلاميَّة منوطة بعللٍ وحكم للصلاح العام

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤م، ص١٢٨.

للفرد والمجتمع، وهذا الاستقراء هو الذي يساعد على انتاج حضارة تقودها الشريعة وَفْقَ مجموعة من الأوامر والنواهي.

وننطلق في هذا البحث من تعريف الحضارة على أنها «تعني التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء»[1]، فإذا كانت الحضارة تعني التقدم، وكانت خاصية من خواص المجتمع فلقد كان للشريعة منهج واضح في تكوين المجتمع في صورته الأولى، صورة الأسرة، وكان لها أوامر ونواه تحدد مسار الأسرة باعتبار اللبنة الأولى التي ينطلق من خلالها التقدم الروحي والمادي، وهنا سأعرض لأنموذجين:

الأول: العلاقة الأسريّة

من يتتبع أوامر القرآن في بناء الأسرة يجده مرتكزًا على المودة والسكن والرحمة، وأطلق عليه الميثاق الغليظ، وربط بين أفراده برباط البر والإحسان، وهذه مجموعة من الآيات تتضمن هذه اللفتات، قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء:٣-٤]، وقوله تعالى﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[النور:٣٢]، وقوله تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١].

فكل هذه الآيات تحمل وجهًا حضاريًّا، يؤسس لمجتمع قادر على إنتاج حضارة، وفي مقابل هذه الأوامر الإلهيَّة نجد نهيًا، يحرم نوعًا من علاقة الرجل بالمرأة، ويصفه بالفحش، ويحكم عليه بالسوء، قال تعالى﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، وهنا تتجلى الحضارة في تكوين المجتمع في صورة أوامر ونواهٍ، وهذا المجتمع العفيف الشريف المترابط المبتعد عن ألوان العهر والفجور، والإسفاف والسفاح

(١) فلسفة الحضارة لألبرت إشفيستر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس ١٩٨٠م، ص٤٣.

هو القادر على إنتاج حضارة، وللحفاظ على هذا المجتمع من التفسخ والتحلل جاءت الشريعة بحد الزنا؛ لردع النفوس المريضة عن انتهاك حرمات الأمة، وهتك أعراضها، فقال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[النور: ٢]، «وإنما حرَّم الإسلام الزنا والربا والميسر والخمر والميتة ولحم الخنزير، وحرم القتل وانتهاك الأعراض؛ تكريمًا للنفس الإنسانيَّة، وارتفاعًا بها عن الحيوانيَّة، وحماية لها من المهلكات، وحياطة لهذا الكيان الإنساني–نفسًا، وجسمًا، وروحًا– من أن يدمره الإسراف في الملذات، أو الخروج عن حد الاعتدال»(١)، ونظرة سريعة في كتب الفقه تجد هذه الأمور واضحة جلية في باب النكاح، وباب الحدود، وتجد شروطها، وواجباتها، وما يجوز فيها، وما لا يجوز، مما يؤكِّد أنَّ تراثنا الفقهي من أسس صناعة الحضارة.

وهنا تتمايز الحضارة الإسلاميَّة بصفتها قائمة على الأوامر والنواهي الشرعيَّة، عن غيرها من حضارات التبرج والسفور والعهر والخلاعة والمجون والإباحيَّة، ففي الوقت الذي نظَّمت فيه الشريعة العلاقة بين أفراد الأسرة وَفْقَ الأوامر والنواهي القرآنيَّة، والتطبيقات النبويَّة، وأسست لمظهر حضاري يتمتع فيه الأفراد بالرعاية المتبادلة، والحقوق والواجبات بما يضمن استقرار المجتمع، وولاء أفراده، خرجت صيحات الحضارات غير الإسلاميَّة تجتر قاذورات، ترفعت عنها الإنسانيَّة منذ زمن بعيد، فوجدنا هذه الحضارة المزعومة تنادي بحقوق المثليين، وتشجع على الإباحيَّة والسفور والتبرج، وتدعو لعلاقات خارج إطار الزوجيَّة(٢)، وهنا تتمايز الحضارة الإسلاميَّة ذات المدد الرباني، والتطبيق النبوي، وتصبح هي الأقدر على قيادة ركب البشريَّة إلى بر الأمان.

الثاني: الضوابط الماليَّة

(١) مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، للأستاذ أنور الجندي، ص٣١.

(٢) لمزيد من التوضيح ينظر: صراع القيم بين الغرب والإسلام، د/محمد عمارة، دار نهضة مصر، الطبعة الخامسة ٢٠٠٦م، صـ ١٦.

اعتنت الشريعة الإسلاميَّة بالضوابط الماليَّة، ويمكننا قراءة موروثنا الفقهي قراءة حضارية جديدة، بما يسهم في بناء الحضارة، فهناك جملة من الأوامر المتعلقة بالمال في حل اكتسابه، ووجوه إنفاقه، وتنميته، وتوريثه، وتحريمه، وقراءة هذه الأحكام بمفاهيم حضاريَّة يشكل إطارًا عامًّا لبناء حضارة، قوامها المال، ونجد من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠ ﴾ [النساء ٢٩-٣٠]، وقوله تعالى:﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ٣٠ ﴾ [الإسراء :٢٩، ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ الفرقان:٦٧]، وللحفاظ على المال وضع ربنا حدًّا لمن أخذه بغير حقه، وانتهك فيه حرمة المجتمع، فقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨ ﴾[المائدة:٣٨].

فهذه الرؤية الإسلاميَّة في الحفاظ على المال واستثماره، وقطع يد من تجرأ عليه بغير حقه، وطلب إنفاقه في وجوه الخير، من مقومات الحضارة، وإذا كان معنى الحضارة التقدم الروحي والمادي للأفراد والمجتمعات، «فإنه لا يتصور أن يحدث أي تقدم في المجتمع إلا إذا تضافرت الجهود، وتوحدت من أجل بلوغ الأهداف المشتركة للوصول بالمجتمع إلى الرقي المأمول، والتقدم المنشود»[1].

(١) الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، للدكتور محمود حمدي شلتوت، هدية مجلة الأزهر لشهر رمضان المبارك لسنة ١٤٣٦هـ، ص ١٢٨.

تقسيم الشريعة باعتبارات حضاريَّة

بعد هذا التطواف حول الشريعة وعلاقتها بالبناء الحضاري أصبح من الضروري دراسة الشريعة وَفْقَ معطيات حضاريَّة، وذلك على أساس أنَّ «مفهوم الحضارة هو كل عمل أو إنتاج، تتمثل فيه الخصائص الإنسانيَّة الفكريَّة والوجدانيَّة والسلوكيَّة»[1]، وبناء على هذا المفهوم فإنَّ أعمال الإنسان ونتاجه- أيًّا كان نوعه- يحتاج إلى ضابط، يحدد فيه الحل من الحرمة، من الإباحة من الحظر، من الوجوب من الجواز، إلى غير ذلك مما نصَّت عليه أحكام الشريعة الإسلاميَّة؛ لنستخلص من الشريعة قانونًا عامًّا، يمزج بين ما جاءت به الشريعة من جملة الأحكام، وما ينتج من تطبيق هذه الأحكام من مظاهر حضاريَّة.

والحق أقول: إنَّ هذا باب من أبواب التجديد الذي يجب أن نطرقه بقوة، وأن نعمل فيه عقولنا، ونقدح فيه زناد العلم لنبني على تراثنا الفقهي الموروث بناءً حضاريًّا، وأعتقد أنَّه لن ترهقنا هذه العمليَّة؛ لأنَّ بين أيدينا موروثًا فقهيًّا ضخمًا، كل ما علينا أن نعيد صياغته؛ لاستنهاض المشروع الحضاري للأُمَّة، فبنظرة سريعة في تقسيمات الفقه الإسلامي نجد أن من أبرز أبوابه باب العبادات، ثم باب المعاملات، ثم باب الأحوال الشخصيَّة، وإذا قرأنا ما تتضمنه هذه الأبواب من مظاهر حضاريَّة يمكن توظيفها في البناء الحضاري لوجدنا بين أيدنا ميراثًا حضاريًّا، تفتقر إليه أكثر الأمم اليوم تحضرًا.

ومن ذلك على سبيل المثال حديث الفقهاء عن أنواع المياه، وتحذيراتهم عن إفساد المياه أو الإسراف فيها، وارتباط ذلك بالمظاهر الحضاريَّة، التي تحترم مكونات الكون التي سخرها الله للإنسان؛ ليشيد منها الحضارة، ومثالًا على ذلك نأخذ قول الأحناف في الحفاظ على الماء كمظهر من مظاهر الحضارة في باب العبادات، فنجد الكاساني يقول: « (وَمِنْهَا) [أي من آداب الوضوء]: أَلَّا يُسْرِفَ فِي الْوُضُوءِ وَلَا يُقَتِّرَ، وَالْأَدَبُ فِيمَا بَيْنَ الْإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيرِ؛ إذِ الْحَقُّ بَيْنَ الْغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ -: «خَيْرُ الْأُمُورِ

(١) الدين والحضارة الإنسانيَّة، للأستاذ الدكتور محمد البهي، مجمع البحوث الإسلاميَّة، السلسلة العلميَّة، السنة التاسعة والأربعون، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، ص٧.

أَوْسَطُهَا»[1]، فهذه الإشارة من لطائف الفقه الإسلامي صارت اليوم تُعقد لها مؤتمرات دوليَّة، وتطلق من أجلها الحملات التوعويَّة، وهي في الأصل موروث فقهي للأُمَّة، جاء ضمن منظومتها الحضاريَّة تحت أبواب الشريعة، وأيدته النصوص النبويَّة، ففي الحديث الشريف: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الْجَارِي»[2]، وهذا النهي يلتزم به الإنسان بدافع من عقيدته، والتزام منه نحو الجماعة التي يعيش فيها، وهذا مظهر من مظاهر الحضارة الإسلاميَّة.

فإذا عرجنا على باب الزكاة نجد أنَّه تضمن إشارات حضاريَّة تكفل للمجتمع رخاء اقتصاديًّا وجوبيًّا على الأغنياء تجاه الفقراء، ووجدنا تنوعًا في الشريعة من ناحية التناول، فعلى حين تناولت كتب الفقه قضية الزكاة من ناحية شروط المال الذي تجب فيه الزكاة، ومقدار الواجب في كل صنف من أصناف الزكاة، وجدنا كتب السلوك تحدثنا عن قيمة الإيثار بما يؤلِّف بين طبقات المجتمع «فالزكاة عبادة فيها قربى إلى الله، تحدد للإنسان اتجاهًا واحدًا في سلوكه، وهو اتجاه المعطي المانح، وبذلك يكبت الاتجاه الآخر في الإنسان، وهو اتجاه الاستيلاء والطمع والجشع»[3]، وهذا من أهم الملامح الحضاريَّة التي انفردت بها الحضارة الإسلاميَّة، على أساس من الشريعة، وذلك في الوقت الذي أهدرت فيه الحضارات الأخرى قيمة الإيثار، وحطمت الجوانب الإنسانيَّة في مجتمعاتها، حتى أفقرت المجتمعات التي آمنت بهذه الحضارة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا انتقلنا إلى باب المعاملات وجدنا الشريعة حكمت الأبواب التي يتعامل بها الناس فيما بينهم، والتي تُعَدُّ أصولًا حضاريَّة عند سائر الأمم والشعوب، فنجد الفقهاء تحدثوا عن باب الإجارة، والمساقاة، والصنائع، والمزارعة، والبيوع ...، ونجد هذه الحرف منوط بها تحقيق العمران؛ إذ إن «الحضارات مجموعة من الأفكار، تجسدها مجموعة من

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (المتوفى: ٥٨٧هـ)، الناشر: دار الكتب العلميَّة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ٢٣/١.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني، حديث رقم (١٧٤٩)، ٢٠٨/٢.

(٣) الدين والحضارة الإنسانيَّة، للدكتور محمد البهي، ص٥٣.

الصناعات»[1] ونجد الوحي قرآنًا وسنة له في هذه الأعمال والحرف تدخل، يضمن به وصول هذه الحرف للغاية التي تحقق معنى العمران المراد في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ومن النصوص التراثيَّة الداعية لتعلم الصناعات قول الإمام الغزالي: «إن أصول الصناعات من فروض الكفاية، كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة...»[2]، وما من صناعة من الصناعات التي تمثل مظهرًا من مظاهر الحضارة إلا وكان للقرآن الكريم فيها إشارة واضحة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠-١١]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۖ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال القرطبي: «فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اتِّخَاذَ الزَّرْعِ مِنْ أَعْلَى الْحِرَفِ، الَّتِي يَتَّخِذُهَا النَّاسُ، وَالْمَكَاسِبُ الَّتِي يَشْتَغِلُ بِهَا الْعُمَّالُ، وَلِذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ بِهِ الْمَثَلَ، فَقَالَ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [3]، ونص كلام القرطبي يوضح مظهرًا من مظاهر الحضارة التي شملتها الشريعة بأحكامها، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ

(١) من قضايا المال والعمل، للشيخ أبي الوفا المراغي، مجمع البحوث الإسلاميَّة، السلسلة العلميَّة، السنة التاسعة والأربعون، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ص٦٠.

(٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص٤٣.

(٣) تفسير القرطبي، ٣٠٦/٣.

غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةً»[1].

وما أريد تأكيده هو المظاهر الحضاريَّة التي جاءت بها الشريعة الإسلاميَّة، وفصلت فيها الأحكام، وعلقت بها عمارة الكون، «وَلِذَلِكَ لَمْ يُخْلِ اللَّهُ تَعَالَى خَلْقَهُ، مُذْ فَطَرَهُمْ عُقَلَاءَ، مِنْ تَكْلِيفٍ شَرْعِيٍّ، وَاعْتِقَادٍ دِينِيٍّ، يَنْقَادُونَ لِحُكْمِهِ، فَلَا تَخْتَلِفُ بِهِمْ الْآرَاءُ، وَيَسْتَسْلِمُونَ لِأَمْرِهِ؛ فَلَا تَتَصَرَّفُ بِهِمْ الْأَهْوَاءُ»[2]، فهذه كلها إشارات لمظاهر حضاريَّة، اشتملت عليها الشريعة ودارت عليها أحكامها، وفي هذا نقض لدعاوى، ترمي التراث الإسلامي بأنَّه رجعي متخلف، لا تنهض به أُمَّة من الأمم، ومن ناحية أخرى يؤكِّد أنَّ الشريعة وموروثنا الفقهي يحمل رؤية حضاريَّة مكتملة الجوانب.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كِتَابُ الْبُيُوعِ، بَابُ فَضْلِ منْ غَرَسَ غَرْسًا، حديث رقم (٣٩٦٨)، ٢٧/٥.

(٢) أدب الدنيا والدين، ص١٣٣.

. المبحث الرابع

الأساس الأخلاقي، وعلاقته بالنسق الحضاري

بعد الحديث عن الأساس التشريعي، وعلاقته بالبناء الحضاري، واستعراض الجوانب الفقهيَّة التي حملت مظاهر حضاريَّة متتعددة، ننتقل إلى الحديث عن الأساس الأخلاقي وعلاقته بالنسق الحضاري، فالحضارة في الرؤية الإسلاميَّة التزام أخلاقي، يندرج تحت مقصد التحسينيات، ومَعْنَاهَا: «الْأَخْذُ بِمَا يَلِيقُ مِنْ مَحَاسِنِ الْعَادَاتِ، وَتَجَنُّبُ الْمُدَنِّسَاتِ الَّتِي تَأْنَفُهَا الْعُقُولُ الرَّاجِحَاتُ، وَيَجْمَعُ ذَلِكَ قِسْمُ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ»[1]، وهذا يغاير مفهوم الحضارة في غير الإسلام؛ إذ إن الحضارة في غير الإسلام مجرد إنتاج واستهلاك، فهذه لا تستحق أن يطلق عليها لفظ حضارة؛ إذ لا يكفي أن يقتني الإنسان الحضارة دون أن يكون ملتزمًا أخلاقيًّا بمنظومة القيم الحضاريَّة والسلوك الحضاري؛ «ولهذا يمكن أن نرى فردًا من الأفراد يستخدم كلَّ منتجات الحضارة، ولكنه لا يسلك سلوكًا حضاريًّا»[2]؛ ولذلك اهتم الإسلام بالأخلاق، وجعلها أساسًا لكل رقي، وتقدم وحضارة، وربطها بالعقيدة، ومزجها بالشريعة، ولما كان الحكم على الشيء فرع عن تصوره، كان من الضروري تعريف الأخلاق، والحديث عن الأخلاق بين النسبيَّة والثبات، وأثر الأخلاق في النسق الحضاري، وعلى هذه المحاور سيدور البحث في هذا المبحث، على النحو الآتي:

مفهوم الأخلاق:

أحاول تحت هذا العنوان أن أوجز القول عن مفهوم الأخلاق، كما صوره القرآن الكريم والسنة النبويَّة، وبادئ ذي بدء أعرِّف بالأخلاق؛ إذ إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فالأخلاق: جمع خلق، وهو هيئةٌ في النَّفسِ راسخة، عنها تصْدر الأفعال بسهولة ويُسْرٍ، من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كانت الْهيئة بحيث تصدر عنها

(١) الموافقات ١/٢٢.

(٢) الحضارة فريضة إسلاميَّة، للدكتور محمود حمدي زقزوق، ص٤٤.

الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سُمِّيَتْ تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سُمِّيَتِ الهيئة الَّتي هي المصدر خُلُقًا سَيِّئًا، وإنَّما قلنا إنَّها هيئة راسخة؛ لأنَّ من يصدر منه بذل المال على النُّدُورِ لحاجةٍ عارضة لا يقال: خُلُقُهُ السَّخاءُ، ما لم يثبُتُ ذلك في نفسه ثُبُوت رسوخ؛ وإنَّما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير رَوِيَّةٍ؛ لأن من تَكلَّف بذل المال أو السُّكوتَ عند الغضب بجهد ورَوِيَّةٍ لا يقال: خُلُقُهُ السخاء، والحِلم ملكة راسخة في النَّفس، عنها تصدر الأفعال بسهولة من غير حاجة إلى فكر ورَوِيَّةٍ[1]، وواضح من هذا التعريف أن الأخلاق ركيزة في نفس الإنسان، تصدر عنها الأفعال، والتصرفات، وهناك علاقة وثيقة بين الأخلاق والعقيدة، فالإيمان بالعالم الغيبي بكل ما فيه أساس الخلق القويم، والسير على الطريق المستقيم؛ فالإنسان إذا ما عرف أنه يجازى على كل ما يقوم به التزم العدل، وتحرى الصدق، وعمل على رد الحقوق إلى أصحابها، فضلًا عن هذا تستقر الرحمة في قلبه؛ فتستولي على كيانه، وتسيطر على أفعاله، ويعرف آثارها من خلال حركاته وسكناته، كما نراه عفيفًا بعيدًا عن الدناءة، ولا شك أن بناء الحضارة لا يمكن تصوره بعيدًا عن هذه السجايا والأخلاق، وإذا كانت العقيدة مثلت الأساس الأول في بناء الحضارة، فإن الأخلاق تمثل القوى الحافظة للنسق الحضاري من الانهيار، وهذه مسلمة لا جدال فيها، لكن تبقى إشكالية تتعلق بالأخلاق، وهي إشكالية الخلاف بين النسبية والثبات؛ حيث إن الأخلاق النسبيَّة لا يمكن أن ترتكز عليها حضارة، وهذا يقتضي إلقاء الضوء على هذه الجزئية.

الأخلاق بين الثبات والنسبيَّة، وعلاقة ذلك بالحضارة:

ذكر الباحثون في الأخلاق أنَّ أصولها ترجع الى ثلاث صفات: الحكمة، والعفة والشجاعة، وعللوا ذلك بأنَّ النفس الإنسانيَّة أوتيت ثلاث قوى: قوة التمييز، وقوة جلب النافع، وقوة دفع الضار. وبعبارة أخرى: العلم، والشهوة، والغضب. وكلٌّ واحدة منها

(١) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، ٥٣/٣، والجواهر النقيَّة في الأخلاق الدينيَّة، للشيخ علي محفوظ، هيئة كبار العلماء ٢٠٢٤م، ص ٤٣.

عرضة للضعف والنقص والإفراط ومجاوزة الحد، وقابلة للتوسط والاعتدال، ولا تكون واحدة منها فضيلة إلَّا إذا لزمت حدَّ الاعتدال، فلم يعترها النقص والضعف والتفريط، ولم تجاوز الحد إلى جانب الزيادة والإفراط؛ فمتى لزمت حدَّ الاعتدال كانت حميدة الأثر، جميلة العقبى، وقد جعلوا لها أسماء بحسب حالاتها، فسموا قوة التمييز عند اعتدالها: حكمة. وإذا ضعفت وقصرت كانت: غباوة وجهالة. وإن جاوزت حد الاعتدال كانت خبثًا: ومكرًا. وسموا قوة الشهوة عند اعتدالها: عفة. فإن قصرت وضعفت كانت: جمودًا وبلادة. فإن جاوزت الحد كانت: شرهًا. وكذلك قوة الغضب تعتدل؛ فتكون: الشجاعة. فإن نقصت كانت: جبنًا. وإذا زادت كانت: تهورًا[1].

ومما امتاز به الإسلام في نسقه الأخلاقي أنَّ مادة الأخلاق فيه غير قابلة للنسبيَّة، بينما تجدها في كثير من النظم الاجتماعيَّة والنظريَّات الفلسفيَّة خاضعة للنسبيَّة، ومرد ذلك إلى أنَّ الأخلاق في الإسلام ارتبطت بالعقيدة، وانبنت على الشريعة، وهذه الخاصيَّة التي انفرد بها الإسلام صبغت الأخلاق فيه بصبغة الثبات، فالمسلم مطالب بالصدق، سواء حقق له الصدق مصلحة، أو لم يحقق، ومطالب بالأمانة بمفهومها الواسع، سواء حققت له الأمانة مصلحة مباشرة، أم لم تحقق، وهذا المعيار ينسحب على كلِّ ما يمكن أن يندرج تحت الأخلاق، وبذلك تكون الأخلاق ركيزة أساسيَّة في النسق الحضاري.

وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفهم حديث سيدنا رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»(٢)، وثمَّة أمر آخر أكَّد ثبات الأخلاق في الإسلام، وهو أنَّ الإسلام ليس

---

(١) الشيخ إبراهيم الجبالي، محاسن الأخلاق في الشريعة الإسلاميَّة، مجلة الأزهر، الجزء السابع، المجلد الأول، ١٣٤٩هـ، ص ٥٣٣.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ قُبْحِ الْكَذِبِ وَحُسْنِ الصِّدْقِ وَفَضْلِهِ، ٢٠١٣/٤، حديث رقم (٢٦٠٧)، ط/ دار إحياء التراث العربي.

دينًا وضعيًا، يتطور مع الزمن، كما تتطور الأديان الوضعيَّة والفلسفات، وإنما هو «دين سماوي، يدعو الناس إلى أن يتطوروا هم؛ ليتلاءموا معه، وليلتقوا به، ولما كان الإنسان هو الإنسان في كلِّ زمان ومكان، فإنَّ القيم الثابتة متصلة بهذا الكيان، مستجيبة لحاجاته، وحامية له»[1].

ونخلص من ذلك إلى أن الأخلاق «عبارة عن قوة ذاتيَّة تتمثل في المبادئ والقواعد المنظمة لسلوك الإنسان، التي يحددها الوحي الذي هو من الغيب، فهي قوة مركوزة في فطرة الإنسان تستمد مقوماتها من مصدر أعلى لتنظيم حياته، على نحو يحقق الغاية من وجوده»[2]، وإذا تقرر ذلك اتضحت العلاقة الوثيقة بين الأخلاق والحضارة؛ إذ إن الأخلاق بهذا المفهوم هي القوة الحافظة للمكتسبات الحضاريَّة، وهذا يدعونا للبحث في:

المسؤوليَّة الأخلاقيَّة، ودورها الحضاري:

لا يمكن تصور حضارة بلا أخلاق، وإن كان هذا الطرح يمكن الاعتراض عليه بأنَّ الحضارة الغربيَّة ازدهرت، وسطع نجمها مع أنَّ كثيرًا من دعواتها لا تمت للأخلاق بصلة، وفي دفع هذا الاعتراض نقول: إنَّ هذه الحضارة الغربيَّة لا تعدو أن تكون عبارة عن امتزاج بين الإنسان والكون في وقت من الأوقات، وهي غير مسؤولة أخلاقيًّا؛ لأنَّ الحضارة في جوهرها التزام أخلاقي، يجعل المرء على وعي بالمسؤوليَّة التي يتحملها الإنسان الفرد، ليس فقط تحمله المسئوليَّة عن أفعاله الخاصة، وإنما تحمله المسؤوليَّة عن العالم الذي يعيش فيه، فكلنا نعيش فوق كوكب أرضي واحد، وهذا الكوكب أصبح كسفينة تتقاذفها الأمواج من كل جانب، وكلنا مسؤولون عما أصاب هذا الكوكب من تلوث في الماء والهواء والغذاء، وما أصاب الإنسان في بدنه من أمراض فتاكة، لا علاج لها، وما أصاب الإنسان من أمراض نفسيَّة واجتماعيَّة ينذر بهلاكه، فهل الحضارة الغربيَّة تحملت مسؤوليتها عن كل هذه الكوارث، بالطبع لا!!، « وإذن لا تقاس حضارة

(١) مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، أنور الجندي، ص ٣٣.

(٢) دراسات في العقيدة الإسلاميَّة والأخلاق، لجنة من أساتذة قسم العقيدة والفلسفة، ص ٢٣٧.

الشعوب بالتقدم في الصناعة، والتقدم في العلم، إلا بمقدار ما يعبِّر التقدم فيهما عن الأهداف الإنسانيَّة التي تستهدفها الشعوب الصناعيَّة، ولا يوصف مجتمع بأنَّه مجتمع حضاري؛ لأن أفراده يملكون السبق في العلم وآلة الصناعة، ثم في الوقت نفسه تتملك هؤلاء الأفراد نزعة الأنانيَّة أو أية نزعة أخرى، تبعدهم عن المستوى الإنساني العام فيما لهم من إنتاج في دائرة الفكر، أو الوجدان، أو السلوك العملي الأخلاقي»[1]، وبما أنَّ الحضارة الغربيَّة تفتقر إلى كل هذه المقومات فإنَّ إطلاق مصطلح الحضارة عليها من باب التسامح في اللفظ.

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن: ما مصدر كل هذه الآفات المناخية، والاجتماعية، والنفسية؟ والإجابة هي: غياب المسؤوليَّة الأخلاقيَّة، ففي الوقت الذي نادت فيه الأخلاق الإسلاميَّة بحرمة الزنا، واعتبرته فاحشة وساء سبيلًا ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، اقتلعت الحضارة الغربيَّة جذور الأخلاق، ونادت بالإباحيَّة، فظهر الإيدز، وازداد عدد أطفال الشوارع، وفي الوقت الذي نادت الأخلاق باحترام الإنسان، والحفاظ عليه أهدرت دمه الحضارة الغربيَّة، وأزهقت روحه بالقنابل الذرية والنووية، والشواهد أكثر من أن تحصى، وما حرب الإبادة في عزة منا ببعيد، فهل هذه حضارة أخلاقيَّة، أو حضارة مسؤولة؟!

وبناء على ذلك فإننا نقرر «أنَّ أي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم لا بدَّ له أن يستند على فكرة الإلزام؛ لأنها الأساس الجوهري، والمحور الذي يدور حوله النظام الأخلاقي كله، وغياب فكرة الإلزام يؤدي إلى انعدام روح الحكمة العمليَّة ومادتها؛ لأنَّه إذا انعدم الإلزام انتفت المسؤوليَّة، وبانتفاء المسئوليَّة لا تحقق العدالة، بل يسود الاضطراب والفوضى» [2]، وبدهيٌّ أن نقرر أن الحضارة لا تنمو في ظل الاضطراب والفوضى.

---

(١) الدين والحضارة الإنسانيَّة، للدكتور محمد البهي، ص٢٤.

(٢) دستور الأخلاق في القرآن الكريم، د/ محمد عبد الله دراز، ترجمة محمد عبد العظيم علي، تقديم د/ محمود عزب، دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص ٤٣.

وهنا تتمايز الحضارة الإسلاميَّة، وتصبح الأخلاق أساسًا راسخًا فيها، في وقت تجردت غيرها، وتعرت عن الأخلاق، وفي ضوء هذه الأفكار نستطيع أن نفهم وفرة الموروث الأخلاقي في التراث الإسلامي، وهو موروث ضخم يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبويَّة، ويؤسس لحضارة تحترم الإنسان.

ومن الأمثلة الواضحة على اعتماد الرؤية الإسلاميَّة لمقومات المسؤوليَّة الحضاريَّة حديث سيدنا رسول الله ﷺ الذي يقول فيه:« لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ»[1]، وقد اشتمل الحديث على الوقت والمال والعمل، «ولا شك في أن هذه العناصر تمثل عوامل مهمة في العمليَّة الحضاريَّة، ومن هنا يحق لنا أن نصف هذه المسؤوليَّة بأنها مسؤوليَّة حضاريَّة»[2]، وهذه المسؤوليَّة وثيقة الصلة بالعقيدة؛ لأن السؤال عنها سيكون بين يدي الله يوم القيامة، وهذا أمر غيبي يتعلق بالعقيدة، وبذلك تكون الحضارة مطلبًا دينيًا، وتكون أسسها ربانيَّة المصدر، وتكون المسؤوليَّة الأخلاقيَّة فيها جزءًا لا يمكن عزله عن أسس صناعة الحضارة في الإسلام.

الأخلاق بين: الحضارة المادية، والحضارة الروحيَّة

بعد أن تقرر لدينا أن الحضارة التزام أخلاقي، وثبت لدينا أن الأخلاق أساس في بناء الحضارة، بعد العقيدة السليمة، والشريعة المستقيمة، يجدر بنا أن نتحدث عن أزمتنا الحضاريَّة، وهذه الأزمة تتلخص في أن عالمنا المعاصر اغتر بمنجزاته الصناعيَّة، وما وصل إليه من اكتشافات، وما تحقق لديه من مخترعات جعله مغرورًا بنفسه، معتزًا بما وصل إليه من علوم ماديَّة، وذلك ولَّد لديه ثقة بنفسه، نتج عنها استخفاف بالجانب الروحي المتمثل في الأخلاق والقيم والمثل العليا، وهو ما يمثل الجانب الروحي، ومن ثَمَّ

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، بَابٌ فِي الْقِيَامَةِ، حديث رقم(٢٤١٧)، ٦١٢/٤.

(٢) الحضارة فريضة إسلاميَّة، للأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، ص٦٥.

نظر للقيم والأخلاق على أنها رجعيَّة وتخلف بالنسبة لما وصل إليه، وهي نظرة أحاديَّة خاطئة، ترفضها الرؤية الإسلاميَّة في بناء الحضارة؛ وذلك لأنَّ الإسلام نظر إلى شخصيَّة الإنسان «على أنها متكاملة لا يصح الفصل بينها واقعيًّا بين ما هو مادي وما هو روحيَّ ... فإن حاولنا الفصل بينهما في واقع الأمر أزهقنا روحه، فلم يعد الإنسان هو الإنسان، وإنما أصبحت المادة مادة صماء، والروح روحًا مجردة، وفقدنا بينهما الإنسان الذي نعرفه»(١).

وبناء على ذلك جاءت الرؤية الإسلاميَّة لتؤكِّد الجانب الروحي المتمثل في الأخلاق لتأسيس الحضارة، والحفاظ عليها من عوامل الانحدار وآفات الهلاك، فوضَّحت للإنسان أنَّ الحضارة إنسانيَّة في انتاجها وفي تطبيقها، وأنَّها كل لا يتجزأ، وأنَّ هدفها الأخير أن تسود الإنسانيَّة في أوضح صورها، وأطلقت الرؤية الإسلاميَّة هذا المفهوم تحت شعار التعارف المتجاوز للأجناس واللغات والألوان، فكانت دعوة حضاريَّة عامَّة نادت في الناس بقولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات:١٣].

وتأكيدًا على تقديم الجانب الروحي على الجانب المادي في الحضارة الإسلاميَّة رأينا القرآن الكريم يفضِّل القول المعروف المهذب على الإعطاء المادي الذي يتبعه الأذى قال تعالى: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٦٣]، ومع ذلك «فإنَّ ضغط الحضارة الماديَّة وتركيزها على المادة لم يكن بعيدًا أو بمعزل عن التأثير على الجانب الروحي، وإن كان تأثيره سلبيًّا؛ ذلك لأنَّ جانبي الإنسان بمنزلة كفتي الميزان، فإن لم يعتدل الميزان فلا بد لرجحان إحدى الكفتين أن تشول الأخرى، وقد هوت كفتها الماديَّة بثقلها العنيف، فكان لا بد أن تطيش الكفة الروحيَّة بفراغها الرهيب»(٢)، ولا شك أن الكفة الروحيَّة هي مظهر التكريم الذي اختص الله به الإنسان، ومن ثَمَّ يُعَدُّ

(١) حاجة العصر إلى حياة روحيَّة، للأستاذ الدكتور عبد الفتاح بركة، ص١٢.

(٢) السابق ص ٦٨.

الحفاظ على التكريم حفاظًا على كلِّ القيم الإنسانيَّة النبيلة التي تتضمن قيام المجتمع الصالح، الذي يتعاون أفراده على نشر كلِّ ما من شأنه أن يعود بالخير على الإنسان في كلِّ زمان ومكان، وإذا نظرنا إلى عبادات الإسلام نجد أنها جاءت لتزكية الجانب الروحي؛ حتى لا تستأثر به المادة، ويفقد بذلك إنسانيته، فتغتاله الأنانية والأثرة والغلبة وغيرها من الأمراض النفسية التي حاربتها القيم الإسلاميَّة، « وبهذا كله يعتبر الإسلام مصدرًا رئيسًا في الحضارة البشريَّة، وأنه دين حضاري»[١]، وتعتبر تعاليمه التي لبَّى بها الإسلام داعي الفطرة عاملًا قويًّا في شيوع الحضارة البشريَّة في مظاهر هذه الحياة، وقد أرشدت على وجه عام إلى ما يجمل به الإنسان نفسه، وخاصة في مناسبات التجمل بالزينة والرياش، ولفتت الأنظار إلى أن تقوى الله إنما هي في الانتفاع بتلك النعم، وأوحت بذلك إلى إحياء صناعة الطيبات وصناعة اللباس، كما أوحت إلى الجد في تحصيل موادها مما تنبت الأرض، وأوحت إلى أن ستر العورة وما يثير الغرائز من أهداف الحكمة الإلهيَّة في تقرير هذا المبدأ، وأن العري الذي تنتهجه الحضارة الزائفة مخالف للأدب الإنساني العام، ومناف لما تقتضيه الطبيعة الآدميَّة من التحفظ والابتعاد عن مظاهر التبذل وعوامل الفتن، « وبهذا ونحوه عدَّل الإسلام الجانب الروحي»[٢].

وقبل أن ألقي عصا البحث في هذا الموضوع أود أن أقرر أن الروحانية التي ننشدها، وما ينبثق عنها من القيم والأخلاق والمثل العيا لن تتصادم مع الحضارة المادية القائمة «ولكنها سوف تضع لها الإطار الذي يعصمها من التخبط، ويحفظ على الإنسان إنسانيته، ويضع في اعتباره العوامل النفسيَّة والروحيَّة الإنسانيَّة، ويكون في أولوياته النظر إلى الألوهيَّة الشاملة التي يخضع لها الكون كله والوجود، كما يكون في حسبانه يوم آخر يقوم فيه الناس لربِّ العالمين»[٣]، وإذا تقرر أن القيم ومنطلقاتها

---

(١) الدين والحضارة الإنسانيَّة، للأستاذ الدكتور محمد البهي، ص٩٠.

(٢) حاجة الإنسان إلى الدين، للشيخ محمود شلتوت، شيخ الأزهر الأسبق، دراسة وتقديم أ.د/ محمد عمارة، دار برهون الدوليَّة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ص ١٥٠.

(٣) حاجة العصر إلى حياة روحيَّة، للأستاذ الدكتور عبد الفتاح بركة، ص ٧٩.

الروحيَّة تمثل الحافظ للمكتسبات والمنجزات الحضاريَّة، أدركنا أن حضارة اليوم في أزمة كبيرة؛ وذلك لتنحيتها القيم والأخلاق والمثل العليا عن نسقها الحضاري.

ونخلص من ذلك كله أنَّ القرآن الكريم والسنة النبويَّة هما الأساس الأوحد لتحديد مفهوم القيم، وتوظيفها الحضاري، وأن الحضارة لا تُتَصور بلا قيم، فإذا أراد مجتمعنا «أن ينهض فلا بد أن يقوى فيه الوعي بالنهضة، ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق الروحيَّة الإسلاميَّة الواعية، وهي روحيَّة التعاون والحد من الأنانيَّة، وروحيَّة المثل والمبادئ العليا، وهي مبادئ العدل والإحسان والخير، وروحيَّة الدفاع عن المجتمع، وهي روحيَّة الجهاد ورد الاعتداء، وروحيَّة السلم مع حفظ الكرامة الذاتيَّة، والاستقلال في الأهداف، وفي مقاييس الحياة، وتلك رسالة الإسلام»[١]، صدق أمير الشعراء عندما قال: [من البسيط]

وإنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا[٢]

سبل بعث الحضارة الإسلاميَّة:

بعد أن استعرضنا أسس الحضارة الإسلاميَّة، واطمأنت نفوسنا إلى أنَّ هذه الأسس هي: العقيدة، والشريعة، والأخلاق، وتأكَّد لدينا أنَّ أي حضارة تتنكر لهذه الأسس الثلاثة فتسميتها حضارة من باب التسامح في اللفظ، يجدر بنا أن نوظِّف ذلك كلِّه في بعث الحضارة الإسلاميَّة من جديد، ولن يتحقق ذلك إلا بغرس الإسلام؛ عقيدة، وشريعة، وأخلاقًا في نفوس الأُمَّة، فلا شك أن أمتنا الإسلاميَّة عاشت فترة ترزح تحت نير الاستعمار، «وأخطر ما يواجهنا اليوم أننا نتحرك من داخل الفكر الذي فرضه علينا النفوذ التغريبي الخطير»[٣]، وغرض أصحاب النزعة الاستعماريَّة إبعاد العرب عن أمجادهم،

---

(١) الإسلام في الواقع الأيديولوجي المعاصر، للأستاذ الدكتور محمد البهي، تقديم الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، مؤسسة حورس الدوليَّة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢م، ص ٣٨.

(٢) الشوقيات .....

(٣) مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، للأستاذ أنور الجندي، ص ١٣.

وتاريخهم الماضي، وقطع صلتهم بالقيم وبالرسالة التي حملوها، وأشاعوها بين البشريَّة، وأسسوا بها حضارة عربيَّة إسلاميَّة، أسهمت وما زالت تسهم حتى هذه اللحظة في البناء الحضاري المعاصر، فإذا ما تأثر العرب المعاصرون بالاستعمار وما يطرحه سهل قيادتهم للمستعمرين، وأصبحوا أتباعًا لهؤلاء في التوجيه وفي الفكر وفي كل ما يتصل بمظاهر الإنسانيِّة، وحتى نكون عمليين فإننا نحتاج إلى:

أولًا: تحرير المصطلحات الحضاريَّة من ربقة الاستعمار، فعلى سبيل المثال: التقدم في المفهوم الإسلامي، غير التقدم في المفهوم الغربي، والقيم في المفهوم الإسلامي غير القيم في المفهوم الغربي، والعلم في المفهوم الإسلامي يختلف عنه في المفهوم الغربي، وعلى غرار ذلك بقيَّة المفاهيم المتعلقة بالحضارة والفكر.

ثانيًا: إماطة اللثام عن أعلام حضارتنا الإسلاميَّة، الذين جمعوا بين الروحي والمادي، وشكلت العقيدة والشريعة والأخلاق نفوسهم، وصبغة نتاجهم العلمي، من أمثال ابن سينا، أبي علي الحسين بن عبد الله (٣٧٠-٤٢٨هـ/ ٩٨٠-١٠٣٧م) الشيخ الرئيس في «الشرعي والمدني» في «الإلهيات» و«الطبيعيات» وفي «التصوف» و«النبات والحيوان» و«الهيئة»! فمن آثاره في الطب «القانون» وفي الحكمة والإلهيات «الشفاء»، و«المعاد»، و «أسرار الحكمة المشرقيَّة»، وفي التجريب والطبيعة: «النبات والحيوان»، و«الهيئة»، و«أسباب الرعد والبرق» ... وغير ذلك كثير من علماء الإسلام أثروا في الحضارة العالميَّة بإسلامهم عقيدة وشريعة وأخلاقًا، وتضمين سيرهم في كتب ومقررات تلاميذنا في المعاهد والمدارس والجامعات؛ لغرس بذور الحضارة بصبغة إسلاميَّة.

وأمثال أبي الوليد بن رشد(٥٢٠- ٥٩٥هـ/ ١١٢٦- ١١٩٨م) الذي كان الناس يفزعون إلى فتواه في الفقه كما يفزعون إلى فتواه في الطب، فهو الفقه الأصولي المتكلم، والطبيب المجرب، صاحب كتاب «الكليَّات» في الطب، و«بداية المجتهد ونهاية المقتصد» في الفقه، و«مناهج الأدلة في عقائد الملة»، و«فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» في علم الكلام والتوحيد...)، وغير ذلك كثير من علماء

الإسلام أثروا في الحضارة العالميَّة بإسلامهم عقيدة وشريعة وأخلاقًا، وتضمين سيرهم في كتب ومقررات تلاميذنا في المعاهد والمدارس والجامعات؛ لغرس بذور الحضارة بصبغة إسلاميَّة

ثالثًا: ترسيخ الرغبة الصادقة لدى جميع أفراد الأمة في استعادة الحضارة الإسلاميَّة، وتحقيق ذلك بعرض الإسلام على أنَّه دين العمل والإنتاج، ودين الدنيا والآخرة، ودين المادة والروح، وأنَّه دين الفكر والحضارة، والتقدم الروحي والمادي معًا، وأنه يملك مقومات إنتاج حضارة العالم في أمسِّ الحاجة إليها.

رابعًا: التعافي من الهزيمة النفسيَّة، التي كان من أثرها تبعيتنا للغرب، وتأكيد أن «الإسلام قدَّم للبشريَّة منهجًا متكاملًا للفكر والحياة والمجتمع والحضارة، وهو منهج تطبيقي عملي، وهو منهج القرآن القائم على الأصالة الربانيَّة والحق»[1].

خامسًا: دحض الدعاوى الغربيَّة التي استقرت في مجتمعاتنا على أنها مسلمات، وإزالة الفواصل المصطنعة بين الحضارة الماديَّة والصناعيَّة من جانب، والحضارة الإنسانيَّة والبشريَّة في الفكر والوجدان والإرادة من جانب «فإذا كان الدين مصدرًا للحضارة الإنسانيَّة البشريَّة، والعلم أساس الحضارة الصناعيَّة والماديَّة، فالدين والعلم متلازمان، ولا غنى عنهما للإنسان في بناء حضارته، والانتفاع بهذه الحضارة» [2].

وأخيرًا: نقرر أن أمتنا تمتلك من المقومات الماديَّة والروحيَّة ما يمكننا من بعث حضارتنا من جديد، وفي هذا الصدد نؤكِّد أننا «لسنا بإسلامنا رجعيين، وإنما نحن به تقدميون، لو وعيناه كما وعاه أسلافنا، وأخذنا أنفسنا به في حياتنا العمليَّة، ولو كان للإسلام وتعاليمه في حياتنا ما يجب أن يكون لكنا في غنًى عن الفلسفات المعاصرة وتنازعها وصراعها، ولسلم مجتمعنا من الفجوات الواسعة، والاضطرابات والبلبلة؛ لأنه بالإسلام يجد التساند والتمسك، وفي الإسلام يجد الدواء والعلاج، يقدمه إلى كل مريض

(١) مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، للأستاذ أنور الجندي، ص ٢٠.

(٢) الدين والحضارة الإنسانيَّة، للأستاذ الدكتور محمد البهي، ص ٩١.

أو مأزوم في الشرق أو في الغرب على السواء، ويوم يرتفع صوت الإسلام سيخرس كل صوت آخر؛ لأن صوته هو صوت الحق، والخير والسلام والإيجابيَّة البناءة، ومبادئه هي مبادئ البشريَّة الفاضلة المهذبة الواعية»[1].

(١) الإسلام في الواقع الأيديولوجي المعاصر، للأستاذ الدكتور محمد البهي، ص٣٩.

خاتمة البحث

حاولت في هذا البحث أن أسلط الضوء على أسس بناء الحضارة الإسلاميَّة، والله أسأل أن أكون قد وفقت في ذلك، وقد تضمنت هذه الدراسة **مجموعة من النتائج أجملها فيما يأتي**:

- بقدر وضوح الرؤية، وسلامة المنهج، وشرف الغاية عند الإنسان تكون ثمار الحضارة ثمارًا طيبة، وعلى العكس من ذلك إذا كانت الرؤية ضبابيَّة، والمنهج مختلًّا، والغاية غير شريفة تكون ثمار الحضارة مرة، وربما كانت سبب هلاك الإنسان الذي صنعها؛ وكي نضمن ثمارًا طيبة للحضارة لا بد أن تكون الرؤية واضحة، والمنهج سليمًا، والغاية شريفة، وذلك لن يتحقق إلا إذا كان الإنسان صانع هذه الحضارة على صلة بموجد هذا الكون، وخالق الإنسان، وهذه الصلة لن تتحقق إلا من خلال دين قيِّم يتجاوب مع فطرة الإنسان في تطلعه للرقي والتحضر، وذلكم الدين هو الإسلام، فالإسلام دين يحقق للإنسان أسمى أمانيه، وَفْقَ منهج واضح أساسه، قائم على ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [سورة العلق: ١-٥]، والذي قرأ باسم ربَّه لن ينتج حضارة مدمرة، أو منافية لقيم الإسلام.

- كانت الحضارة ثمرة لتدافع الجهد الإنساني؛ بغية الاستفادة من مكونات الكون المتمثِّلة في الثروات المذخورة في باطن الأرض، أو البحار والأنهار، أو طبقات الفضاء، وهي تحتاج لمنهج تربوي يوجِّه الإنسان توجيهًا صحيحًا، وهو يتفاعل مع الكون والعمر؛ لإنتاج حضارة طيبة الثمار، يحقق الإنسان من خلالها العمران المنشود من استخلافه في الأرض.

- القرآن الكريم قد وجَّه أبصارنا نحو الكون، وطلب منا أن نتدبر هذا الكون، وأعطانا من صفات الأشياء من حولنا ما نهتدي به إلى أدق خصائصها؛ لنبحث في باطن الأرض تارة، وفى أعماق البحار تارة أخرى، وفي طبقات السماء، وفي تضاريس الجبال، وخصائص الحيوانات، وتجلى ذلك في أكثر من صورة، منها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا

﴿يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية من ١٧-٢٠]، فهو بذلك قد وضع بين أيدينا منهجًا متكاملًا لإنتاج حضارة مثلى.

- وضع القرآن الكريم المنهج التربوي والأخلاقي لصانع هذه الحضارة، وهو الإنسان، فكما وجَّه القرآن بمنهج التدبر، ووضع أبجديَّات البحث الكوني في الآفاق وفي الأعماق وضع أيضاً المنهج التربوي والأخلاقي، الذي يضمن به اتساق هذه الحضارة مع الفطرة الإنسانيَّة؛ لتكون مصدر سعادة، لا مصدر شقاء، ومصدر إيمان، لا مصدر إلحاد، ومصدر تقوى، لا مصدر فجور.

- اشتمل تراثنا الإسلامي على كم هائل من التفسيرات، والتحليلات والنظريَّات، التي أنتجها أسلافنا، والتي كانت أساسًا مهمًّا في حياتنا، وخطوة أولى من خطوات صناعة الحضارة، وتحقيق العمران؛ إذ على أساسه وجد المنهج التربوي والأخلاقي الذي يحمي الإنسان من شرور نفسه، ويربطه بربه وخالقه في تحديد غاياته، واتخاذ السبل الشرعيَّة التي تحقق هذه الغايات، ومن ثَمَّ ظهرت كتب الأخلاق، وكتب الفقه، وكتب اللغة، وكتب الفلسفة وكتب التصوف والسلوك؛ لتتكامل في وضع منهج رباني المصدر، يضمن استقرار الحضارة وانتشار خيرها، على أساس عقدي، وتشريعي، وأخلاقي.

- الرؤية الإسلاميَّة التي أنتجها التراث الإسلامي تتيح لنا صناعة حضارة آمنة، تحترم آدميَّة الإنسان، ولا تُغير على خصائصه، ولا تبدل خلق الله، ولا ترتكب الموبقات والمحرمات؛ لأنها محكومة بمنهج رباني يحرِّم عليها أشياء ويُحلّ لها أشياء، وهذا مناط الأساس التشريعي، وما حرم وما أحل يتفق وفطرة الإنسان ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك آية ١٤].

- إنَّ العقيدة لا بد أن تفرض على المؤمن بها التزامات وواجبات خاصة وعامة، وعقيدة التوحيد تفرض هذه الالتزامات في جميع شئون الحياة، فلا تترك فيها مجالًا إلا وتحدد فيه منهجًا ومسلكًا توحيديًّا يرتبط بالله، ويؤكِّد معنى الاستسلام لله، وتضيف إلى

ذلك صورًا واقعيَّة تعيد تذكير الإنسان بهذه الحقيقة كلما استغرقته مختلف الأحداث والتصرفات، وإذا كانت هذه مقتضيات العقيدة فإنَّ الحضارة التي يصنعها الإنسان وَفْقَ هذه المقتضيات حضارة ربانيَّة المصدر، تصل الدنيا بالآخرة، وتصل الأرض بالسماء، وتصل الإنسان بخالقه، وتعمل على تحقيق الجانب الروحي والمادي، وتحقق ذات الإنسان وتقاوم أنانيته، وتضبط شهواته ونزواته، وتسمو بإنسانيته على حيوانيته.

- أنَّ العقيدة تعمل على تحرير العقل من الخرافة، وتحرير الوجدان من الهوى والتأثر بالبيئات وعاداتها التي ربما تكون فاسدة، وتحرير الإرادة من التعطيل يطلق حركة التعمير والبناء، ولا شك أن تحرير العقل يفتح باب العلم، وتحرير الوجدان بقيم روابط الأخوة الإنسانيَّة، وتحرير الإرادة يعين على الابتكار والإبداع، واستقرار العقيدة يملأ النفس أمنًا وسكينة، فتفيض منها رحمة عامة تزدان فيه بحلية التواضع والحياة، وإذا تحرر العقل والوجدان والإرادة انطلقت الحضارة في جميع ميادين الحياة.

- الشريعة أساس في بناء الحضارة، وبغير الشريعة تكون المنجزات الحضاريَّة أمراضًا اجتماعيَّة تحتاج لعلاج، وليست حضارة، ولا يجوز أن يغيب عن أذهاننا أنَّ هدف الحضارة هو الإنسان قبل أي شيء آخر، وفي تأكيدنا على معنى الإنسان وكرامته وحريته لا نعدو قول الحقِّ إذا قلنا: إنَّ الحضارة –أي حضارة تنتهي عندما تفقد في شعورها معنى الإنسان ، وبما أنَّ الإنسان هو هدف الحضارة وموضوعها، اعتنت الشريعة بحفظ الإنسان، فنتج عن ذلك ما عُرف بالْمُحَافَظَةِ عَلَى الضَّرُورِيَّاتِ الْخَمْسِ – وَهِيَ: الدِّينُ، وَالنَّفْسُ، والعِرْضُ، وَالْمَالُ، وَالْعَقْلُ– وَعِلْمُهَا عِنْدَ الْأُمَّةِ كَالضَّرُورِيِّ.

- تتمايز الحضارة الإسلاميَّة–بصفتها قائمة على الأوامر والنواهي الشرعيَّة– عن غيرها من حضارات التبرج والسفور والعهر والخلاعة والمجون والإباحيَّة، ففي الوقت الذي نظَّمت فيه الشريعة العلاقة بين أفراد الأسرة وفق الأوامر والنواهي القرآنيَّة، والتطبيقات النبويَّة، وأسست لمظهر حضاري يتمتع فيه الأفراد بالرعاية المتبادلة، والحقوق والواجبات بما يضمن استقرار المجتمع، وولاء أفراده، خرجت صيحات الحضارات غير الإسلاميَّة، تجتر قاذورات، ترفعت عنها الإنسانيَّة منذ زمن بعيد، فوجدنا

هذه الحضارة المزعومة تنادي بحقوق المثليين، وتشجع على الإباحيَّة والسفور والتبرج، وتدعو لعلاقات خارج إطار الزوجيَّة، وهنا تتمايز الحضارة الإسلاميَّة ذات المدد الرباني، والتطبيق النبوي، وتصبح هي الأقدر على قيادة ركب البشريَّة إلى بر الأمان.

- إنَّ هذا باب من أبواب التجديد الذي يجب أن نطرقه بقوة، وأن نعمل فيه عقولنا، ونقدح فيه زناد العلم؛ لنبني على تراثنا الفقهي الموروث بناءً حضاريًّا، وأعتقد أنَّه لن ترهقنا هذه العمليَّة؛ لأنَّ بين أيدينا موروثًا فقهيًّا ضخمًا، كل ما علينا أن نعيد صياغته لاستنهاض المشروع الحضاري للأُمَّة، فبنظرة سريعة في تقسيمات الفقه الإسلامي نجد أن من أبرز أبوابه: باب العبادات، ثم باب المعاملات، ثم باب الأحوال الشخصيَّة. وإذا قرأنا ما تتضمنه هذه الأبواب من مظاهر حضاريَّة يمكن توظيفها في البناء الحضاري لوجدنا بين أيدنا ميراثًا حضاريًّا، تفتقر إليه أكثر الأمم اليوم تحضرًا.

- امتاز الإسلام في نسقه الأخلاقي بأنَّ مادة الأخلاق فيه غير قابلة للنسبيَّة، بينما تجدها في كثير من النظم الاجتماعيَّة والنظريَّات الفلسفيَّة خاضعة للنسبيَّة، ومرد ذلك إلى أنَّ الأخلاق في الإسلام ارتبطت بالعقيدة، وانبنت على الشريعة، وهذه الخاصيَّة التي انفرد بها الإسلام صبغت الأخلاق فيه بصبغة الثبات، فالمسلم مطالب، بالصدق سواء حقق له الصدق مصلحة أو لم يحقق، ومطالب بالأمانة بمفهومها الواسع، سواء حققت له الأمانة مصلحة مباشرة، أم لم تحقق، وهذا المعيار ينسحب على كلِّ ما يمكن أن يندرج تحت الأخلاق، وبذلك تكون الأخلاق ركيزة أساسيَّة في النسق الحضاري.

- لا تقاس حضارة الشعوب بالتقدم في الصناعة، والتقدم في العلم، إلا بمقدار ما يعبِّر التقدم فيهما عن الأهداف الإنسانيَّة التي تستهدفها الشعوب الصناعيَّة، ولا يوصف مجتمع بأنَّه مجتمع حضاري لأن أفراده يملكون السبق في العلم وآلة الصناعة، ثم في الوقت نفسه تتملك هؤلاء الأفراد نزعة الأنانيَّة أو أية نزعة أخرى، تبعدهم عن المستوى الإنساني العام فيما لهم من إنتاج في دائرة الفكر، أو الوجدان، أو السلوك العملي الأخلاقي، وبما أنَّ الحضارة الغربيَّة تفتقر إلى كل هذه المقومات فإنَّ إطلاق مصطلح الحضارة عليها من باب التسامح في اللفظ.

- الروحانية التي ننشدها، وما ينبثق عنها من القيم والأخلاق والمثل العليا لن تتصادم مع الحضارة المادية القائمة، ولكنها سوف تضع لها الإطار الذي يعصمها من التخبط، ويحفظ على الإنسان إنسانيته، ويضع في اعتباره العوامل النفسيَّة والروحيَّة الإنسانيَّة، ويكون في أولوياته النظر إلى الألوهيَّة الشاملة التي يخضع لها الكون كله والوجود، كما يكون في حسبانه يوم آخر، يقوم فيه الناس لربِّ العالمين، وإذا تقرر أن القيم ومنطلقاتها الروحيَّة تمثل الحافظ للمكتسبات والمنجزات الحضاريَّة، أدركنا أن حضارة اليوم في أزمة كبيرة؛ وذلك لتنحيتها القيم والأخلاق والمثل العليا عن نسقها الحضاري.

التوصيات

- بناء تصور حضاري، تشترك فيه المؤسسات الأكاديميَّة البحثيَّة، يعمل على إحياء الحضارة الإسلاميَّة.
- ترسيخ الفكرة الحضاريَّة في المقررات الدراسيَّة لدى طلاب المدارس والجامعات من خلال مقررات دراسيَّة، تجمع بين المقومات الماديَّة والروحيَّة للحضارة.
- تقويم المفهوم الحضاري كما تقرره الرؤية الإسلاميَّة، وتفنيد الشبهات التي تلحق به من أنصار الحضارة الماديَّة الغربيَّة، وذلك عبر المنتديات الشبابيَّة، والتجمعات الطلابيَّة، والندوات التثقيفيَّة.
- قراءة التراث الإسلامي قراءة حضاريَّة، وذلك باستخلاص المظاهر الحضاريَّة في كل فن من فنون التراث.

المصادر

١. إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٢. أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ) دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

٣. الإسلام في الواقع الأيديولوجي المعاصر، للأستاذ الدكتور محمد البهي، تقديم الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، مؤسسة حورس الدوليَّة، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢م.

٤. الإسلام والأمن الاجتماعي، للأستاذ الدكتور محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.

٥. الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ /٢٠٠٤م.

٦. الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، للدكتور محمود حمدي شلتوت، هدية مجلة الأزهر لشهر رمضان المبارك لسنة ١٤٣٦هـ.

٧. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (المتوفى: ٥٨٧هـ) الناشر: دار الكتب العلميَّة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٨. تفسير القرطبي= الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن ابي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

٩. حاجة الإنسان إلى الدين، للشيخ محمود شلتوت، شيخ الأزهر الأسبق، دراسة وتقديم أ.د/ محمد عمارة، دار برهون الدوليَّة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

١٠. حاجة العصر إلى حياة روحيَّة، للأستاذ الدكتور عبد الفتاح بركة، عضو هيئة كبار العلماء، إصدار هيئة كبار العلماء، الطبعة الأولى، ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م.
١١. الحضارة فريضة إسلاميَّة، للدكتور محمود حمدي زقزوق، طبعة هيئة كبار العلماء، ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.
١٢. دستور الأخلاق في القرآن الكريم، د/ محمد عبد الله دراز، ترجمة: محمد عبد العظيم علي، تقديم: د/ محمود عزب، دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
١٣. الدين والحضارة الإنسانيَّة، للأستاذ الدكتور محمد البهي، مجمع البحوث الإسلاميَّة، السلسلة العلميَّة، السنة التاسعة والأربعون، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.
١٤. ديوان عمرو بن كلثوم، جمعه، وحققه: إميل بديع يعقوب، الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
١٥. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض، المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ /١٩٧٥م.
١٦. شروط النهضة، مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن نبي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، دار الفكر، دمشق، سورية، ١٩٨٦م.
١٧. صحيح مسلم= المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٨. صراع القيم بين الغرب والإسلام، د/ محمد عمارة، دار نهضة مصر، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٦م.
١٩. العقيدة وبناء الإنسان، للأستاذ الدكتور عبد الفتاح بركة، طبعة هيئة كبار العلماء، الطبعة الأولى ١٤٤٥هـ/٢٠٢٣م.

٢٠. علم المقاصد الشرعية، نور الدين بن مختار الخادمي، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
٢١. فلسفة الحضارة لألبرت إشفيتسر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، ١٩٨٠م.
٢٢. كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، دار الكتب العلميَّة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م.
٢٣. كيف نفهم الإسلام، للشيخ محمد الغزالي، دار نهضة مصر للنشر، الطبعة الثالثة عشرة، ٢٠١٧م.
٢٤. لسان العرب، محمد جمال الدين ابن منظور الأنصاري (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.
٢٥. المحصول في أصول الفقه، لفخر الدين الرازي، الطبعة: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.
٢٦. مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، للأستاذ أنور الجندي، الأزهر الشريف، سلسلة البحوث الإسلاميَّة، الكتاب الثاني، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
٢٧. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مالك بن نبي: القاهرة: ١٩٧١م.
٢٨. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية، بيروت.
٢٩. المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق/ طارق عوض الله محمد، وعبد المحسن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
٣٠. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور جواد علي (المتوفى: ١٤٠٨هـ) الناشر: دار الساقي، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٣١. مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الشعب.
٣٢. من حضارة الإسلام، للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل، إصدارات المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة، الكتاب السادس والعشرون، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٣٣. من قضايا المال والعمل، للشيخ أبي الوفا المراغي، مجمع البحوث الإسلاميَّة، السلسلة العلميَّة، السنة التاسعة والأربعون، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.

٣٤. منهج الحضارة الإسلاميَّة في القرآن الكريم، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، سوريَّة، طبعة الثانية عشرة، ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م.

٣٥. الموافقات، للشاطبي: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.